

أولادنا

الربان الجرئ

بقلم
عبد التواب يوسف

دار المعارف

الرُّبَّانُ الجَرِيءُ

اقرأ
(٢٩)

الرُّبَّانُ الجَرِىءُ

رواية عربية

بقلم
عَبد التواب يوسف

الطبعة الثالثة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

مقدمة

هذه قصة من تاريخنا ، فيها جوانب مشرقة رائعة ، حاول البعض أن يسدل عليها ستاراً كثيفاً فلا نستدل عليها ، وقد نغفل عنها هرباً من بعض صورها . .

. . ولكنها بمقياس العصر الذى وقعت فيه تعد أسطورة فذة ، وبطلها يحق لنا أن نفخر به ، على الرغم مما حاولوا إلصاقه بحياته وتصرفاته ، فليس لدينا سجل لها ، ومراجعنا – مع الكثير من الأسف – أغلبها من خصومه . . ونحن هنا نحاول أن ننقى الصورة مما علق بها من شوائب نتيجة لزمن طويل أحال من فوقها التراب ، ونتيجة لروايات غريبة تناثرت هنا وهناك بلا أسانيد ولا رابطة تجمعها . .

منذ قرن ونصف أراح « رحمة » الدنيا ، واستراح . . لقد كان قَلِقاً ، مُقلِقاً ، عاش حياته العريضة بحّاراً عظيماً ، وملّاحا محارِباً ، وربّاناً جريئاً ؛ يتخذ من البحر ميداناً لتلك الفروسية التى مارسها

جدوده وأهله على البر ، ولم يملك البعض إلاّ أن يعترفوا ببطولته . . وهذا بعض مما قالوه عنه :

يقول جيمس بلجريف :

« إن الرُّبّان الكويتى الجرىء رحمة بن جابر أبلى بلاء عظيماً فى معركة البحرين ضد الفرس .

ومنذ ذلك الحين ذاع صيته وشاع . . » .

ويقول بوكنهجام :

« هذا المحارب البارع كان يعيش حياة بسيطة ولا يرتدى إلاّ اليسير من الثياب ، حتى إنه ما من غريب يستطيع تمييزه عن رفاقه إذا ما سار وإياهم . . وكان نحيل الجسم ، نحيل الأطراف ، تملأ جسمه آثار الجراح . . أما وجهه فقاس ، خال من معانى الجمال ، ويزيده قسوة آثار الجروح فيه ، وفقدان إحدى العينين » .

ويقول جان جاك بيربى :

« سيطر هذا الملّاح المحارب على الخليج فترة طويلة ، وعندما رأى الدائرة ستدور عليه ، وأيقن أنه لا محالة هالك ، فجَّر بنفسه مركبه ،

وألحق الهلاك ببحارته وأعدائه . . وبعد رحمة لم يعرف الخليج ربابنة محاربين » .

ونحن نقول :

فليكن رأيهم فيه ما يكون . . أما نحن فإننا لابد أن نعرفه ، ونعتز به ، ونلقى الضوء على حياته ومغامراته . . وقد يكون من بين هذه المغامرات ما لا نرضى عنه ، ولكن الرجل كان إنساناً : بضعفه وقوته ، بخيره وشره ، بحسناته وسيئاته . . بل كان « بطلا » بمقياس الأيام التى عاش فيها ، وكان « مناضلا » بمقياس العصر الذى نعيشه . .

رحم الله « رحمة » .

* * *

١

فارس أم بحار !

وبدأت المعركة . . .

كانت حامية الوطيس ، و « رحمة » الصغير يرى وهو يقاتل الصبيان واحداً بعد الآخر ، وينتصر عليهم انتصاراً باهراً . . ولكن أحدهم كاد يغلبه ، إلا أنه استطاع أن يتماسك ، ويقبض عليه بيد من حديد ، ثم يطرحه أرضاً ويرقد فوق صدره ، وما إن رفع يده يريد أن يهوى بها عليه حتى تكاثر الأطفال ضده ، كل منهم يأخذ بتلابيبه من ناحية ، ويتجاذبونه بينهم ، فأصابه الدوار ، وشعر كأنما هو وسط أمواج بحر تتقاذفه ، لم ينقذه منها إلا صياح الديك ، وصوت أمه . . فاستيقظ من نومه ، ودعك عينيه ، وهزّ رأسه ، وهو لا يكاد يصدق أنه نجا من خصومه . .

قالت له أمه :

- هيا يا ولدى . . انهض . .

قام من فراشه يتمطى ، ويحرك ذراعيه مدًّا وثنياً ، وهمس فى صوت متراخ :

– ها قد نهضت يا أمى . .

هتفت فى حنان :

– احلب لنفسك بعض لبن العنزة . .

مضى الصغير إلى خارج الخيمة فى بطء وتثاقل ليستقبله النور والهواء ، فراح يملأ عينيه وصدره ، وينشق عطر الصباح فى سعادة غامرة ، إذ كان يحب هذه اللحظة من يومه : لحظة لقائه بالصباح الجديد . . ، وتطلع ببصره إلى السماء الصافية وقطعة بيضاء من السحاب تدفعها الرياح فى حنو ، والشمس تشرق رويداً من خلفها ، وشعاعات حمراء قد بدأت تطل من وراء الأفق . . ومن بعيد وصل إلى سمعه صوت مياه الخليج ، هادئاً هامساً ، والموج يتكسر فى رفق على شط قريته « التى تطل عليه » والنسيم يداعب أطراف النخيل وقد تفتحت قلوبه تجاه السماء ، كأنه فى صلاة صامتة .

أقبل الصبى على العنزات الأربع ، فتمسحت به وهو يركع بجانبها وفى يده إناء صغير ، استطاع بعد جهد كبير أن يملأه لمنتصفه باللبن ، وناولته أمه بضع بلحات ، بدأ يأكلها ويشرب اللبن . .

سألته أمه :

– إلى أين تذهب اليوم ؟

– إلى البحر طبعاً ، مع عمى . .

قالت أمه فى لهجة تحمل عتاباً رقيقاً :

– ومن يصحب العنزات لترعى العشب مع ماشية خالك ؟

– لقد سئمت المرعى . .

– ياولدى ، العنزات فى حاجة إلى الطعام ، وإلا فلن تعطينا اللبن . .

– تستطيع أختى أن تذهب بها . .

انصرفت الأم إلى شئونها ، على حين راح هو يعد الشباك ، ومضى بعض الوقت قبل أن تقول الأم :

– لست أدرى لماذا بدأت تنصرف عن بيت خالك ؟

– كنت هناك بالأمس ، وسهرت إلى ساعة متأخرة أسمع قصة « عنترة » . . اعتدلت شقيقته فى فراشها ، وهتفت :

– أحسست بك عندما عدت ، ورأيتك فى ضوء القمر تحمل قطعة من الخشب ، وتمتطى صهوة شىء ما على أنه حصان ، وتَصُول وتَجُول ، كأنما أقبل جيش الأعداء ، ورحت تنهال عليهم طعناً وتقتيلا . .

أطرق « رحمة » وضحك فى خجل وهو يقول :

- ظننتك نائمة .

قالت الأم :

- إن هذا العبث لم يعد يليق بك ، أنت الآن فى العاشرة من عمرك وأقرانك فرسان بحق .

قال :

- وأنا أيضاً فارس ، لولا أننا لا نمتلك حصاناً . .

قالت أخته :

- ألم تقل إنك تريد أن تصبح بحاراً ؟ . .

لم يجب « رحمة » ولكنه انصرف مهرولا إلى الخارج ، حاملا أدواته ، وهو يطرح على نفسه هذا السؤال :

- فارس أم بحار ؟ . .

لقد ناقش الأمر مراراً ، وتحدث عنه مع « خليل » ابن خاله ورفيقه ، ومع أخته وهم يجلسون إلى ظلال النخيل والأغنام ترعى العشب بالقرب منهم ، وتمضغ طعامها وإفطارها ، وتجترها فى صمت . .

كان « خليل » يدافع فى حرارة عن الفروسية ، فهو يهوى الخيل ويحب ركوبها ، كما أنه ورث الإعجاب بالفرسان عن أبيه الذى يرى أن عنترة هو بطل الأبطال . . وقد أقام الأب وليمة حافلة ، شهدها كثيرون

جاءوا من أماكن بعيدة ، وكانت المناسبة أن الراوى كان قد وصل فى قصته إلى زواج عنترة من عبلة ، فانتهز الأب الفرصة لكى يقيم هذا الحفل البهيج الذى ظل حديث الناس لفترة طويلة . . إذ كادت الوليمة تنقلب إلى معركة ، لأن واحداً من الموجودين تجاسر وقال إن « عنترة » لو قابل « الهلالى » لما استطاع أن ينتصر عليه . . ولقد ضاقت أم « خليل » بإعجاب زوجها الشديد بالبطل الشهير ، وطلبت إليه أن يهتم بعمله ويلتفت إلى رزقه ، بدلا من الجرى وراء هذه الروايات والحكايات ، وانضم « خليل » إلى والدته وساندها فى هذا الموقف ، فإذا بالأب يثور ثورة عارمة ، ويخاف الابن غضبة أبيه فينطلق إلى بيت عم له ، يشكو إليه ما حدث ، فهدَّأ العم من ثائرته قائلا :

– أبوك أخى ، وأنا أعرفه جيداً . . كثيراً ما طلبت منه أن يدع هذه الخيالات . . سَعِد خليل بكلمات العم ، واطمأن إلى أنه سوف يعيد الوالد إلى صوابه ويرجعه عن هذا الطريق ، وواصل العم كلماته قائلا :

– نعم . . والدك يعيش فى خيالات مريضة . . أنا واثق من هذا . . إن بطله « عنترة » هذا لا يستطيع أبداً أن يهزم الزناتى خليفة . . لو أنه قابله . .

ذهل خليل ، وأدرك فى هذه اللحظة فقط أن الأسرة كلها مفتونة بالحكايات الشعبية وأبطالها . وكثيراً ما كان « رحمة » يداعب والدته وصديقه « خليل » بهذه النوادر ، وتضحك الأم وابن شقيقها ، ويردان له الصاع صاعين بالنسبة لغرام أسرة والد « رحمة » بالبحر ؛ إنهم جميعًا بلا استثناء بحارة ، وصيادو أسماك ولؤلؤ ، وهم لا يستطيعون أبداً أن يحرروا أنفسهم من حب البحار والأسفار . . بل إنه هو أيضاً قد ورث عنهم هذا الحب ، ولم يكن يوقعه فى الحيرة بين الفروسية والبحرية سوى الحكايات التى كان يسمعها فى بيت خاله ، والتى كانت تسحره قبل أن يحمل عمه من البصرة نسخة من « ألف ليلة وليلة » ، ليقرأ له فيها قصة « عبد الله البرِّى وعبد الله البحرى » وقصص السندباد . . وكان عمه يتطلع إلى الخليج وهو يقول له :

— من هنا خرج السندباد إلى الدنيا الواسعة . . أبحر فى رحلته الأولى إلى الأرض المتحركة ، ولقى هناك خيول البحر حين رست سفينته عند صوت حسبوه جزيرة . . وفى رحلته الثانية تركوه فى جزيرة نزلوا إليها وأبحروا منها قبل أن يستيقظ من نومه ، وعندما استيقظ رحل إلى أرض الماس ، ليلتقطه الرخ ويطير به فى أول رحلة جوية قام بها إنسان . . وعندما ضلت سفينته فى رحلته الثالثة زار وادى الأقزام والعمالقة ، و . . .

ويحفظ « رحمة » عن ظهر قلب قصص السندباد كلها ، ويرويها بشغف وحب لشقيقته والخليل ، ولبقية الرفاق والأصدقاء ، وكانت له وقفة طويلة قرب نهاية الرحلة السابعة التى أنهى فيها السندباد رحلاته الرائعة ، ففيها حمل سندباد هدايا الخليفة هارون الرشيد إلى ملك سرنديب « وبعد انقضاء مدة الضيافة استأذن السندباد ملك سرنديب فى العودة إلى مدينة السلام – بغداد – فسافر إليها مُحمَّلا بالهدايا والعطايا ، على مركب به كثير من التجار ، ومعهم الأحمال والمتاع ، وهبت الرياح فتحركت السفينة شطر بحر العرب ، فإذا بقوم كالأباليس ، عليهم الدروع والعود ومعهم القسىُّ والنبال ، يعترضون بمركبهم سفينة السندباد ، وينزلون إليها فينكِّلون بمن فيها ويقتلون من يقاومهم ، ثم يسوقون الباقين إلى البر ويبيعونهم فى سوق العبيد » .

ويردد « رحمة » هذه الفقرة من القصة ، كالمسحور ، ويسأل ويتساءل :

– من هم هؤلاء « الأباليس » ؟ . .

ولم يجد عند عمه إجابات شافية ، إذ كان يصرفه عن هذا الحديث بإشارة من يده ، أو يحكى فى إيجاز شديد واحدة من حكايات لصوص البحر ، يفتتن بها « رحمة » ويتمنى لو أنه التقى بواحد من هؤلاء المغامرين بعد أن ترددت أسماء كثيرين منهم أمامه ، مقرونة

بالخوف من أصحابها . . وكثيراً ما كان يمضى إلى الشط ، يرقب السفن والبحارة ، يبحث بينهم عن هؤلاء « الأباليس » فلا يجدهم . . وقد يختار لنفسه بقعة خالية من الشط ، ومعه بعض أصحابه ، ويقوم بصناعة زوارق من ورق ، يدفع بها إلى الماء لتطفو وتسبح ، ومن مكانه على الأرض يصوب إليها قذائفه لكى يصيبها ويغرقها ، ويسأله الصحاب :

– لِمَ هذا يا « رحمة » ؟ . .

– إنى أتصورها سفن الأعداء . .

ويقول واحد منهم ويعقب آخر :

– كل السفن للأعداء . .

– نعم ، لم يكن للعرب سفن . .

ويهتف « رحمة » فى غضب :

– بل كانت لنا السفن ، شاعرنا قبل الإسلام هو القائل :

ملأنا البر حتى ضاق عنا   وماء البحر نملؤه سفينا

وأنشد الجميع هذه الكلمات ، موقعة على أنغام حلوة . . وما إن انتهوا من الغناء حتى واصل « رحمة » حديثه :

– ثم : ألم تسمعوا عن معركة « ذات الصَّوارى » ؟ . . ألم تسمعوا عن سفن « طارق بن زياد » ؟ . .

سأله أحدهم :

– كيف عرفت كل هذه الأشياء ؟ . .

أجابه :

– أعمامى لهم صلات قديمة بالبصرة ، وهم دائما أبداً رائحون إليها غادون منها ، يحملون التجارة وينقلون البضائع . . ويأتون منها بالكتب . .

سألوه :

– هل ذهبت أنت إلى البصرة ؟

قال :

– ذهبت إليها مرة وأنا صغير . . لا أكاد أذكرها . . رأيت فيها سفناً كثيرة لا حصر لها . . ومنذ عام لم يعد أعمامى يترددون عليها ، فقد احتلها الفرس ، لذلك تحولت تجارة الهند إلى بلادنا « الكويت » تمر عبرها من الشرق إلى سوريا . .

ويمسك « خليل » الخيط ، ويروى قصة القوافل التى تسير برًّا ، يحميها الفرسان حتى تصل إلى « دمشق » . . ثم يتشعب الحديث بين الصحاب ، ويقضون وقتاً طيباً ، ثم يعودون إلى دورهم . . ويبقى « رحمة » وحده ، لا يريد أن يغادر الشط ، ولا يرغب فى العودة انتظاراً لقدوم سفينة تحمل « الأباليس » . .

وهكذا تسلل حب البحر إلى نفس « رحمة » فكان يستيقظ كل صباح ليجرى إليه ، كأنما هو يناديه ، وما كان يستطيع أن يقضى يوماً كاملا بدون أن يسبح فى مياهه ، أو يستقل سفينة تبحر فيه ، أو يشارك عمه فى الصيد . . وعندما شعر العم بغرام « رحمة » وحبه الكبير للبحر ، قال له :

— يا « رحمة » . باعد ما بينك وما بين هذا البحر . .
إيّاك أن تصدق ابتسامته ذات يوم صاف جميل .
احذر دعوته لك إلى رحلة ممتعة مع النسيم .
لا تقبل إغراءه لك بالتجارة الرابحة ، باللؤلؤ الثمين .
إنه يحفر لك فى جوفه قبراً ، أو يقذف بك إلى الشطّ حطاماً .

ولم تنجح كلمات العم فى صد « رحمة » عن البحر ، كما لم تستطع حكايات الخال أن تجذبه إلى البر ، إذ أصبح الخليج رفيقه وصديقه ، وأضحت أحلى أوقاته تلك التى يقضيها بجانبه أو وسط مياهه ، أو فوق سفينة تمخر عبابه . . وكثيراً ما كان يقف ، ويمسك بيسراه السارية ، فى حين يضع يمناه فى وسطه ، ويتطلع إلى الأفق البعيد ، كأنما يستشف عنده المستقبل ، ويسأله عما يخبئه له ذلك البحر الأخضر الساحر . .

وفى واحدة من هذه الرحلات القصيرة لقى « رحمة » رجلا هنديًّا عجوزاً ، له لحية سوداء كثة ، وعينان لامعتان ذكيتان ، ووجه أسمر



باسم . . وقد تفرّس الرجل طويلا فى وجه الصبى ، وطلب إليه أن يبسط كفَّيْه ، وحدَّق فيهما لحظات قبل أن يقول له ، وعمه يقف بجانبه يسمع فى دهشة :

– يا رحمة بن جابر . .

عين ماء تقودك إلى الماء ،
تفقد العين وتسود الماء ،
تصبح عيناً ويغلبك الماء .

* * *

٢

البحّار الصغير

ذات مساء ، كان « رحمة » يقف وحده على الشط يسامر المياه ، ويحدثها ، وأصداء كلمات الهندى العجوز ترن فى أذنه ، وقد غفل عن كل ما حوله . . ومن بعيد تهادت سفينة ضخمة ، ذات أشرعة بيضاء أربعة ، وعندما اقتربت من الشط ألقى البحارة المرساة فى رقة كأنما يخشون أن يمزقوا صفحة المياه . . وجرى « رحمة » تجاه السفينة حتى لامست قدماه الماء ، تغسلها الأمواج غادية رائحة ، والسعادة تملأ قلبه ، إذ لاحت له فرصة رؤية مثل هذه السفينة الكبيرة التى لم ير مثلها من قبل ، وأدهشه أن ترسو بعيداً عن الميناء ، وفى هذه البقعة الخالية من البيوت والناس . .

وقفت السفينة ثابتة كالطَّود ، وأنزل بحارتها بعض القوارب فى الماء ، وراحوا يجدّفون تجاه الشط ، « ورحمة » يرقبهم فى ذهول ويتساءل عمن يكونون . . وعندما اقتربوا منه رأى أنهم يلبسون

ملابس غريبة ، ويحملون أسلحة عديدة ، ويضعون فى آذانهم أقْراطاً ذهبية . .

وبعد لحظات قفزوا إلى البر بخفة وسرعة ، وكان يتقدمهم واحد حول أصبعه خاتم تلمع فيه ماسة كبيرة . . أقبل هذا الرجل نحو « رحمة » وقال له فى لغة عربية ركيكة تشوبها لكْنة تركية :

– نحن نبحث عن مياه عذبة للشرب . . سمعنا أن هنا عين ماء قريبة . .

قال رحمة :

– هذا صحيح . . تعالوا أدلكم عليها .

ومضوا خلفه يحملون قرباً فارغة ، وعندما وصلوا عند العين بدءوا يملئونها ، ورئيسهم ذو الخاتم البراق ، يرقبهم فى اهتمام ، ويطالبهم بالإسراع فى عملهم . .

اقترب « رحمة » منه ، وسأله :

– هل أنت بحّار؟

أجاب الرجل :

– نعم . .

سأله « رحمة » :

– هل رأيت قرصاناً ؟ . .

ضحك الرجل ضحكة عالية ، وقال :

- ربما . . أظن أنى قابلت بعضهم . .

هتف « رحمة » فى دهشة وفرح :

- حقًّا ؟ . . هل رأيت « كابتن كيد » شخصيًّا ؟ هل قابلت « بيريك التركى » ؟ هل عرفت « الأمير مهنا » ؟ . .

ابتسم الرجل ابتسامة عريضة وهو يقول :

- لا أظن أنى تشرفت برؤية أحدهم ، ولكن زعيمنا قابل بعضهم ويعرف الكثير عنهم ويحب أن يراك ويتحدث إليك عنهم . . فإنك برغم جهلك تبدو صبيًّا ذكيًّا . .

وأضاف واحد من البحارة :

- حقًّا ، لماذا لا تأتى معنا إلى السفينة وتتحدث إلى القبطان ؟

سألهم « رحمة » فى لهفة :

- هل أستطيع أن أصحبكم ؟ . .

أجابه أحدهم :

- نعم ، لِمَ لا ؟ . .

قال « رحمة » :

- ولكن أمى تنتظرنى ، وستقلق لو أننى تأخرت كثيراً . .

رد الرجل ذو الخاتم البراق فى أصبعه :

– لا . . لن تتأخر . .

وحمل القارب قِرَبَ المياه ، والبحارة ، ورحمة . . وكان الظلام قد بدأ يزحف ، وتناثرت النجوم فى السماء ، ولف الدنيا هدوء عميق ساحر مثير . . وعندما وصلوا إلى قرب السفينة شاهد « رحمة » سُلَّماً من الحبال يتدلى إلى جانبها ، وبدأ البحارة يتسلقونه إلى ظهر السفينة .

مضى « رحمة » خلف الرجل ذى الحلىّ البراقة فى أذنيه وأصبعه حتى وصلوا إلى قُمرة ، طرق الرجل بابها بعنف وهو يقول :

– سيدى القبطان . . إن معى ضيفاً يريد أن يتحدث إليك . .

وقد سبق لك أن طلبت منى أن أبحث لك عن واحد مثله . . وهو يريد أن يعرف شيئاً عن القراصنة من أمثال كابتن كيد ، وبيريك التركى ، والأمير مهنا ، وذى اللحية السوداء . .

سمع « رحمة » وقع أقدام عنيفة ، ثم فُتح الباب وانبعثت من خلفه ضحكة عالية كالرعد ، ودفع البحار « رحمة » إلى الداخل ليرى القمرة شبه مظلمة ، وقد جلس رجل ضخم الجثة إلى مائدة صغيرة ، يخفى من خلفه مساحة كبيرة من الغرفة ، ويدخن فى شراهة . . كان شديد السمرة ، شعره بلون وجهه ، وعيناه لامعتان يتطاير منهما الشرر حتى ليكاد يضىء المكان ، وعندما ضحك ملأت ضحكته الغرفة ، ولما رفع يده ليشعل غليونه،ووضعها على المنضدة أنَّت تحت أصابعه .

ساد الصمت فترة تصورها « رحمة » ساعات كاملة ، والرجل يقذف من فمه دخاناً لا يصدر إلا عن مدخنة ، ثم ألقى نحو « رحمة » بنظرة عابسة ، وقال وكلماته تنطلق من فمه كالحمم :

- ماذا تريد أن تعرف عنّا ؟

رفع « رحمة » بصره إليه فى دهشة وقال :

- عنكم ! ! . . أنا أريد أن أعرف الكثير عن القراصنة . .

قال الرجل :

- نحن قراصنة . .

فتح « رحمة » عينيه ، وفمه ، وهتف فى ذهول :

- أنا إذن فوق ظهر سفينة قراصنة ؟

قال الزعيم :

- نعم . . ولو أن من تسأل عنهم من القراصنة شُنقوا منذ وقت بعيد . . آخرهم « الأمير مهنا » . . كان شجاعاً داهية . . وقد اعتقله الأتراك عام ١٧٥٠ ، أى منذ خمسة وعشرين عاماً ، وقطعوا رقبته وعرضوه فى شوارع البصرة على الناس ليشهدوا ما حل به . . صعق « رحمة » لهذا الذى يسمعه ، ولم يفتح فمه بكلمة ، فى حين أضاف زعيم القراصنة :

- ها قد عرفتنا . . بقى أن نعرف من أنت أيها الصبى ذو الوجه

القاسى والملامح الخالية من الجمال . .

— أنا . . أنا . . أنا « رحمة » . .

قهقه القرصان الكبير للاسم الرقيق ، على حين واصل الصبى كلماته :

— اسمى رحمة بن جابر . . عمرى نحو اثنى عشر عاماً . . ولدت فى الكويت . . وأنا يتيم الأب . . أعيش مع أمى .

قال القرصان :

— كفى . . أنت من هذه اللحظة غلامى . . فإننى منذ وقت بعيد وأنا أبحث عن صبى مثلك ينظف غرفتى وينظمها ، ويقوم على خدمتى . . والآن هيا إلى عملك . .

غضب « رحمة » لهذا الذى يحدث ، فقد صعد إلى ظهر السفينة ليسمع عن القراصنة ، فإذا به يجد نفسه وجهاً لوجه معهم ، ثم ها هم أولاء يتبعون أساليب القرصنة معه ، لذلك هتف فى عنف :

— لست أريد أن أكون غلاماً لأحد ، كما أنه لا رغبة لى فى مثل هذا العمل . .

صرخ فيه القبطان :

— لم نسألك إن كنت تريد أو لا تريد ، ترغب أو لا ترغب . . ليس لأحد هنا إرادة خاصة ، أو رغبة معينة ؛ إنما الكل طوع إرادتى

ووفق رغبتي . . أتفهم هذا ؟ . .

ولطم القبطان « رحمة » على وجهه بعنف وقوة ، ودارت به الأرض وكاد يسقط لولا أنه تماسك ، وتمالك قليلا قبل أن يقذف بنفسه مهاجماً الزعيم ، فاصطدم به ليرتد دون أن يتحرك الرجل من مكانه قيد أنملة ، بل بقى ثابتاً كالجبل ، والضحكة العالية كالرعد تنطلق من صدره . . وقال :

– يالك من غلام شجاع . . لن تُعاقَب على هذا الذى فعلته تقديراً لجرأتك . .

وقام من مكانه ، وقبض على ذراع « رحمة » ، وقاده بعنف إلى خارج القمرة ، وما إن ظهر فوق ظهر السفينة حتى أسرع البحارة إليه ليتلقوا تعليماته ، فقال لهم :

– خذوه لتدربوه على العمل ، واحذروا أن يعتدى عليه أحد منكم . .

اصطحب البحارة « رحمة » بالقوة بعيداً عن قمرة الزعيم الذى دخل وأغلق الباب ، ومضوا بالغلام وهو يقاوم حتى استطاع أن يفلت من بين أيديهم ، لتبدأ مطاردة فريدة بينهم وبينه . . كان فيها أشبه بالفأر يجرى بسرعة فائقة إلى ركن من الأركان ، وما إن يحاصروه ويتصوروا أنهم قاب قوسين أو أدنى من القبض عليه حتى يفاجئهم

بتسربه من بين أيديهم كالزئبق . . كان يختفى وراء البراميل ، وما إن يجروا تجاهه حتى يقفز فوق إحدى القمرات ، وعندما يصعدون إليه يتسلق سارية ، كأنه قرد ماهر ، ومنها يتعلق بأخرى إذا وجدهم وراءه . .

وبعد قليل كان كل بحارة السفينة يتعقبونه وهم يطلقون أصواتاً عالية نبهت القبطان إلى أن شيئاً غريباً يحدث خارج قمرته ، ففتح الباب ليذهله ما يجرى . . الغلام ينطلق ، ويتسلق ، ويتسلل ، ويقفز ، ويزحف ، والمطاردون من ورائه بالعشرات ، ولا أحد يقدر على الإمساك به ، عند ذلك صرخ القبطان فيهم :

– كفى . . فليرجع كلٌ إلى عمله .

هدأت الثورة قليلا ، ووقف « رحمة » كالفأر المذعور يلتقط أنفاسه ، وقهقه القبطان وهو يقول له :

– إنك رائع . . ذلك يجعلنى أكثر تمسكاً بك . .

قال « رحمة » :

– دعنى أنزل ، وإلاّ ألقيت بنفسى من السفينة إلى الماء . .

ابتسم القبطان فى هدوء ، وقد راح يفكر بسرعة :

– اهدأ . . ولسوف نجيبك إلى ما تطلب . .

وتقدم نحوه ببطء ، وتراجع « رحمة » يقول :

– لا تحاول أن تمسكنى . .

وكان القبطان قد وصل إلى كومة من الحبال امتدت يده إليها دون أن ينظر إلى « رحمة » وفجأة طار الحبل فى الفضاء ، فإذا به يستقر من حول عنق الصبي ، ويكاد يخنقه ، فيقع على الأرض . . وتقدم منه القبطان يوقفه ويقول له وهو يخفف من ضغط الحبل على رقبته :

– لقد أصبحت أسيرى . .

التقط « رحمة » أنفاسه وهو يقول :

– إنها حركة رائعة تستحق عليها التهنئة ياسيدى القبطان . . هل تعلّمنى إيّاها ؟ . .

قال القبطان :

– ابق معى وستتعلم الكثير . .

هتف رحمة :

لا . . لا . . إننى لا أريد البقاء . .

قال القبطان :

– قلت لك من قبل : لا إرادة لأحد هنا غير إرادتى . .

والتفت القبطان إلى البحارة وأمرهم فى صوت عال :

– ارفعوا المرساة ، وانشروا القلاع ، ولتنطلق السفينة تجاه الجنوب . .

بقى « رحمة » مقيداً ، حبيس قمرة القبطان حتى مضت السفينة إلى عرض البحر ، ثم أطلق البحارة سراحه ليتجول على ظهر السفينة ويلقى البحارة الذين كانوا يحيونه مبتسمين ضاحكين ، متمنين له مستقبلا عظيماً بينهم . وظل هو غاضباً ، ضيق الصدر بكل ما يجرى حوله لوقت طويل ، ثم اضطر أخيراً لمجاراتهم والتعامل معهم . . وكانوا يضحكون فى مرح كلما تذكروا المطاردة المثيرة التى بدأ بها « رحمة » حياته معهم ، والتى جعلته معروفاً للجميع منذ اللحظة التى وضع فيها قدمه على ظهر السفينة . . ليصبح أصغر قرصان عرفه التاريخ . .

وذات ليلة مقمرة جلس « رحمة » وحده على سطح السفينة ، وسمع أغنية هندية تترامى إليه من بعيد ، يغنيها واحد من البحارة . . وتذكر « رحمة » الهندى العجوز ، وكلماته التى كان يحفظها عن ظهر قلب :

« عين ماء تقودك إلى الماء » . .

لقد تحققت النبوءة الأولى . .

* * *



٣

أَلِفَ « رحمة » حياته الجديدة ، وأحبه القبطان ، والبحارة ليقظته وذكائه . . وبدأ يشارك فى أعمال كثيرة ، يقبل عليها فى اهتمام ومقدرة ، ويؤديها فى براعة وكفاية ، وشعر الجميع بأنه سوف يصبح بحاراً ممتازاً . . وكثيراً ما كانوا يعتمدون عليه فى أعمال لا يقوم بها إلا المدربون منهم ، مما جعل القبطان يعجب به إعجاباً شديداً ويقرّبه إليه ، ويتبسط معه ، ويرفع عنه أعمال النظافة ، التى لا يكلف بها إلا أقل الناس شأناً على السفينة ، ولم يكن « رحمة » من بينهم ، بل هو يقوم على تلميع السيوف والمدافع ، وإعداد الذخيرة والبارود ، ويشارك فى كل شىء ، بل يحدث القبطان حديث الند للند . .

قال « رحمة » يوماً للقبطان :

– أريد أن أضع قرطاً ذهبيًّا فى أذنى مثل الباقين ، بل إنى أريد أن يكون لى خاتم فى أصبعى ، به لؤلؤة من الخليج العربى . .

وضحك القبطان ، وقال له بصوته الجهورى :

– ها قد بدأت تطلعاتك أيها القرصان الصغير . .

سأله « رحمة » :

متى يكون لى بحق مثل هذه الخواتم . .

أجابه القبطان :

– ستكون لك هذه الخواتم عندما تستطيع أن تستولى عليها عنوة وبالقوة . .

وأشار زعيم القراصنة إلى الأقراط البراقة الجذابة فى أذنه وقال :

– لقد رفض صاحب هذه الأقراط أن يعطينى إياها ، فاضطررت لأن أفقده أذنيه لكى أحصل عليها . .

اقشعرَّ بدن « رحمة » وهو يسمع هذه العبارة ، وغطى عينيه بكفيه كأنما يريد ألا يتصور هذا المنظر الرهيب ، ورد فى فزع وضيق :

– لست فى حاجة إليها إذا كان هذا هو سبيل الحصول عليها . .

صاح فيه القبطان :

– كف عن هذه التصرفات الصبيانية ، وأمسك عن هذه الكلمات الرقيقة . . أنت لم تعرف حقيقة الحياة فى البحر ، إنها حياة لا تعرف الرحمة يا « رحمة » . . إنك إذا لم تُفقد عدوك حياته فقدت حياتك أنت .. واحد منكما فقط هو الذى يستطيع أن يعيش .

انصرف « رحمة » والصور تتتابع أمام عينيه ، والكلمات ترن فى أذنيه ، فيفزع منها ، ولكن العمل كان يحتويه ويشغله عن كل

ما عداه ، وهو يستمتع بعمله ويحاول فى دأب شديد أن يعرف كل شيء ، وأن يلم بما يجرى حوله . . وعندما يسلم رأسه للنوم يمر به شريط الذكريات : يفكر فى أمه ، وشقيقته ، ترى كيف حالها ؟ هل يمزقها القلق على غيبته ؟ وعمه ، وخاله ، وخليل صديقه : ما أخبارهم ، كم يود أن يبعث إليهم برسالة يخبرهم فيها بأنه بخير ، ولكن كيف السبيل إلى هذا وهو لا يرى طيلة يومه غير الماء والسماء ؟ . .

ومع الزمن ، بدأ شريط الذكريات يقصر ، ويبهت ، خاصة وقد بدأت اهتماماته تتغير ، وأصبح يتابع أحاديث القبطان مع أعوانه عن التيارات السياسية التى تجتاح الخليج ، وأحس بأنها أعنف بكثير من تيارات المياه ، وعواصف البحر . . إن هناك قوى عدة تتصارع فى هذا المكان ، كل منها يريد أن يثبت وجوده ، ويستأثر بالنفوذ . .

العثمانيون ، والفرس ، والهنود . . ثم أوروبا ممثلة فى البرتغال ، وفرنسا ، وهولندا ، وإنجلترا . .

ولم يكن « رحمة » يكف عن السؤال عن حكاية كل من هؤلاء ، وأدهشه أن تتمكن البرتغال – البلد الصغير البعيد – من أن تصل بنفوذها إلى الخليج ، وعرف قصة الصراع بين عرب مصر وبين البرتغاليين ، وسمع عن المعارك البحرية الطويلة التى دارت رحاها فى

البحر الأحمر بين أسطولى البلدين ، وكم أسف لأن الصراع قد انتهى لمصلحة البرتغال بسبب استعمار العثمانيين لمصر والوطن العربى كله . .

وتنبه « رحمة » لخطورة هذا الذى جرى ، ويجرى . . وعرف أن الصراع بين إنجلترا وفرنسا امتد لسنوات طويلة ، بل إن الحرب بينهما امتدت لسبع سنوات كاملة انتهت بهزيمة فرنسا وتخليها عن مستعمراتها فى الهند لإنجلترا ، ومنذ ذلك الحين قلَّ نفوذ فرنسا فى الخليج . . وكان السؤال الذى يلح على « رحمة » قبل أن ينام كل ليلة :

– أين نحن العرب من كل هذا ؟ . .

غرق « رحمة » فى بحار أفكاره ، وكان يسمع أكثر مما يتكلم ، ويعمل أكثر مما يسمع ، ويتعلم ويتدرب فى صبر ودأب شديدين ، والبحارة يضحكون لشغفه واهتمامه بالبحر والسفن ، بالقوى المتصارعة والدول صاحبة المصالح ، على أن أكثر ما كان يثيره حكاياتهم عن المعارك التى خاضوها ، وتمنى لو تتاح له فرصة ليشهد واحدة منها . . وكانوا يقولون له :

– صبراً . . لا تتعجل ، فلسوف تخرج من معركة لتدخل أخرى . .

ولم يطل به الأمر ، إذ سمع يوماً صوت واحدٍ من البحارة يهتف :

– أرى على البعد سفينة تجارية . .

جرى الجميع يتطلعون إلى حيث أشار البحّار وفى عيونهم نهم وجشع ، ظهر واضحاً عندما ثبت لهم أن السفينة ليست لمواطنيهم ، وأن عليها حمولة كبيرة قادمة من الهند ، وعندئذ صاح فيهم القبطان :

– هيا . . أعدوا كل شىء للهجوم . .

ارتفعت الراية السـوداء ، وعليها الجمجمة والعظمتان المتقاطعتان . .

وجهزت الذخيرة ، ووقف الرجال وراء المدافع ، وامتشق كل منهم سلاحه ، وضاعفت السفينة من سرعتها تجاه صيدها الجديد ، إلى أن استطاعت أن تلحق بها ، وعندها ارتفعت قهقهة الزعيم ، وهو يصيح بصوت مدوى :

– اطلقوا النار . .

ودوت قذيفة ، وأخرى ، وثالثة . . وانعقدت سحابة من دخان كثيف ، يغطى سفينة القراصنة فى ظلام مخيف ، اضطر معه « رحمة » إلى أن يغلق عينيه ، وظل يسعل بصوت مرتفع ، وشعر بأنه يكاد يختنق . . وكانت السفينة تهتز بعنف وقوة ، والمياه تتناثر إثر سقوط القذائف فيها ، إذ كان القراصنة يصوبون مدافعهم قرب السفينة ، فما كانوا يرغبون فى إغراقها ، بل يريدون منها أن تسلم لهم . . وعندما فتح « رحمة » عينيه وجد أن سحابة الدخان قد بدأت تنقشع وتتبدد ،

وشاهد وسط الدخان راية بيضاء تداعبها الرياح ، وأدرك أن السفينة استسلمت . .

اقتربت سفينة القراصنة من صيدها الثمين ، والتصقت السفينتان ، ثم ارتبطتا بدعامات خشبية وضعها القراصنة ، وساروا من فوقها يطلقون صرخات مرعبة ، ويلوحون بسيوفهم اللامعة ، ثم قفزوا بكل عنف فوق ظهرها ، وأطاحوا ببعض بحارتها الواقفين فى يأس وحزن ، ثم أفسحوا الطريق لزعيمهم الذى سار فى خيلاء ، وهبط إلى السفينة فى غرور ، وصرخ فى بحارتها :

– أعطونا كل ما لديكم من ذهب وفضة وحرير . .

انتشر القراصنة فوق السفينة ، يجردونها من كل شىء ، ووقف « رحمة » من وراء حاجز سفينته يرقبهم وهم يأخذون كل ما يستطيعون حمله منها ، وينادونه أن يعاونهم فى مهمتهم . . ومضى بعض الوقت تمكنوا خلاله من تصفية كل ما على السفينة وتركوها مجرد قطعة خشبية تطفو فوق سطح الماء . . وقبل أن يغادروها استدعى زعيم القراصنة ربان السفينة ، وقال له :

– اذهب ، وقم بصفقة جديدة . . وثق أنك عائد إلينا حتماً . وسنشكر لك جهدك الكبير . . وإلى اللقاء . .

عاد القراصنة فى نشوة إلى سفينتهم ، ورفعوا الدعامات الخشبية ،

وأبحروا مبتعدين ، وأنشودة نصر وظفر تنطلق عالية من حناجرهم ، وبدأت عملية إحصاء الأسلاب وتوزيعها تحت إشراف القبطان وقد وقف فوق مكان عال . . و « رحمة » لا يكاد يصدق هذا الذى جرى تحت سمعه وبصره ، ويظن نفسه فى حلم عميق شاهد فيه سفينة السندباد وقد هاجمها « الأباليس » . . ولكن ها هم أولاء حوله ، يرقصون ويغنون ، ويقتسمون الأسلاب التى حصلوا عليها فى فرح وبهجة . .

وأيقن « رحمة » أن كل ما حوله واقع حتى حين ناداه زعيم القراصنة « إنه لم ينسه فى زحمة إحصاء الأسلاب وتوزيعها ، لذلك منحه قرطاً ذهبيًّا صغيراً ، علقه فى أذنه بطريقة همجية أدمتها وآلمته كثيراً ، ولكن صيحات وضحكات القراصنة غطت على صرخته ، وارتفع هتافهم وتصفيقهم وزعيمهم يقول له :

– ها أنت ذا قد أصبحت قرصاناً ، بحلقة ذهبية فى أذنك . . مثل كابتن كيد ، وبيريك ، والأمير مهنا . . المهم أن تتفادى مصيرهم . .

وحمله القبطان بين يديه ، ورفعه عالياً ، ثم قذف به وسط البحارة ، وتلقفوه بين أيديهم ضاحكين . .

ولم تنم السفينة فى هذه الليلة ، بل ظلت ساهرة تحتفل بهذه المناسبة السعيدة ، وقد أضاءت المشاعل جنبات المكان ، وانعكست أنوارها

على المياه تسبح معها وهى منطلقة تجاه البحرين . .

وقرب الفجر وصلت السفينة إلى هذه الجزر الرائعة التى فتنت « رحمة » حين تطلع إليها ليراها لأول مرة ، ولكى تسحره بقية عمره . . ونزل إلى الماء ليسبح ، وليشرب من العيون التى تنفجر فى أعماق البحر ، وازداد إيماناً بقدرة الله الذى يخرج الحى من الميت ، والماء العذب من قلب الماء المالح . .

شىء واحد ، تألم له « رحمة » فى البحرين . . ذلك هو أن أهله العرب كانوا يُسامون الظلم والخسف ، ويلقون العنف والاضطهاد على مدى سنين طوال . . جاءهم البرتغال ، وأخذوا أرضهم وشيدوا عليها الحصون والقلاع . . ولكنها لم تحمِهم حين قدم الأمير شيراز عام ١٦٠٢ من الشط الشرقى للخليج لكى يطرد البرتغال ، وعلى مدى من الزمان كان الصراع بين العثمانيين والفرس عنيفاً من أجل البحرين ، وشاركت فيه عمان إلى أن استتب الأمر أخيراً فى يد « نادر شاه » .

ولقد ظل « رحمة » طيلة وجوده فى هذه الجزر الساحرة يفكر فى مستقبلها . . وتذكر أقاصيص عن « خالد بن الوليد » و « سعد ابن أبى وقاص » و « القادسيَّة » . كان يرويها عمه الذى كان يتردد على البصرة بحراً ، وخاله الذى يسافر إلى دمشق برًّا . . وكان كلما تنقل بين هذه الجزر هتف فى نفسه :

– أين أنت « ياخالد » ؟ . . وأنت « ياسعد » ؟ . . من يعيد « القادسية » من جديد ؟

ولقد ظلت هذه الأسئلة تتردد فى ذهنه لسنوات طويلة ، كان يبحر خلالها من الخليج إلى بحر العرب ، إلى المحيط الهندى . . ومن شواطئ الخليج إلى شواطئ أفريقيا ومن جزر هنا إلى جزر هناك . .

وكان خلال هذه الرحلات التى طالت يتذكر بلده « الكويت » وأهله . . إنه يحن إليهم كثيراً ، ويشتاق إلى حياته معهم . . ولكن : كيف السبيل إليهم ؟ . .

قضى « رحمة » ليالى طوالا يفكر فى حاله ، ويدبر أموره . . خطر له أن يهرب عندما تصل السفينة إلى البر ، غير أن الجزر التى يرسون عندها قاحلة ، لا ماء فيها ولا نبات ، ولا سبيل للوصول منها إلى بلده . . إذن ، فلندع الأمر للظروف ، فقد تحقق هى وسيلة العودة إلى الديار ، إن كان فى العمر بقية ، على ظهر هذه السفينة التى يترصدها الموت فى كل رحلة . . و « رحمة » فى لحظة لقائه مع الصباح تلك اللحظة التى يحبها ، يحمد الله كثيراً ، على أنه مازال حيًّا . . إن بحارة هذه السفينة فى صراع مع الأمواج والعواصف والأنواء . . وفى صراع مع السفن الأخرى التى تمخر عُباب البحر . . وفى صراع مع بعضهم بعضاً حول الأسلاب . . وكل واحد منهم فى صراع مع نفسه حول هذا

الذى يفعله عن غير رضاً ، وبلا اقتناع . . يالها من حياة تتلخص فى كلمة واحدة هى :

« صراع » . .

* * *



٤

الربان الجديد

امتشق كل منهما سلاحه . .

صراع جديد ، وقف البحارة يرقبونه باستخفاف فى بداية الأمر ، فقد ظنوا أن نتيجته معروفة مسبقًا . . التفوا حول « رحمة » الفتى الشجاع ، و« عبدون » القرصان الرهيب ، وهما ملتحمان فى معركة عنيفة ، كان من الواضح أنها لابد أن تنتهى بمصرع واحد منهما ، هو أضعفهما بالطبع . .

إن بساطة « رحمة » أغرت هذا القرصان الخبيث ، فراح يداعبه فى سخف ويضايقه محاولا سلب نصيبه من الغنائم التى حصل عليها من عمليات الإغارة على السفن ، مع أن نصيب « رحمة » كان ضئيلا هزيلا ، ولكنه الطمع والجشع . . . ولم يكن « رحمة » يسمح لزملائه بالتمادى فى العبث معه ، ويحاول أن يبدو جادًّا ، ليغطى على صغر سنه ، ونحافة قوامه ، وتواضع مظهره ، ولم يتحمل أسلوب « عبدون »

ولم يطق تصرفاته حياله ، وبرغم إدراكه أن هذا القرصان أقوى منه وأكثر خبرة فإن ذلك لم يحل بينه وبين أن يعلن عليه الحرب ، وأن يدخل معه فى معركة قد لاتكون فى صالحه ، فإن خصمه فى استطاعته أن يورده مورد الهلاك ، أو يجرحه جرحًا كبيرًا إذا هو ترفق به ، ولن يترفق . .

فُرضت المعركة على « رحمة » وعليه أن يصمد ويقاتل . . وقد دافع عن نفسه فى جسارة وبسالة ، ونجح فى إفساد هجمات خصمه ، الأمر الذى جعله يستشيط غضبًا ، ويخور كالثور وهو ينقض على الفتى الصغير النحيف ، فإذا بهذا يفلت من بين يديه ويعاجله بضربة عنيفة من سلاحه . . ويطيش صواب « عبدون » ويفقد اتزانه ، ويبدأ « رحمة » فى الهجوم عليه ، ويضطر القرصان للتراجع ، وشدد الفتى الهجوم ، وقد بدأت المعركة تسترعى الالتفات وتجتذب الأنظار ، وتشيعت جماعة قليلة للفتى الصغير الذى واصل الهجوم فى شجاعة منقطعة النظير ، وضغط على خصمه بين التهليل والتصفيق . . واحتدمت المعركة بالغة العنف والإثارة ، وينجح « رحمة » فى ضرب سيف خصمه ، ويسقط السيف قرب حاجز السفينة ويتراجع « عبدون » بسرعة وجزع ، فإذا به يصطدم بالسور عند قطعة متصدعة منه ، فينهار به إلى الوراء ويسقط فى الماء ، ويغالب الأمواج وتغالبه .

وفوجئ البحارة بالفتى « رحمة » يلقى بسلاحه ويقفز وراءه فى الماء ، ويتصورون أنه قد فعل ذلك من أجل مواصلة القتال ، ولكى يغرق « عبدون » ولكنهم ذهلوا إذ اكتشفوا أن الفتى كان يصارع الأمواج من أجل إنقاذ غريمه ، إذْ إن سقوطه المفاجئ لم يدع له فرصة يستعيد فيها نفسه . . ونجح الفتى فى مهمته ، وعاد بغريمه إلى السفينة قبل أن تبتلعه الأمواج . .

وأصبحا صديقين . . وماأقل الأصدقاء فوق ظهر هذه السفن . . إنها تمضى لتسلب وتسرق . . وقد تنضم فى قوافل تتألف الواحدة من عشرين سفينة تنتشر كأسنان المشط ، لاتبعد الواحدة عن الأخرى سوى خمس أو ست عقد ، مما يجعل وجود الطريدة مؤكدًا ، لأنه مامن مركب تجارى يمر إلا ويصادف إحدى هذه السفن ، وتنطلق إشارات من النور والدخان متفق عليها ، فتتجمع زميلاتها وتطوق المركب التجارى وتأخذ كل مافيه وتطلق سراحه ، ليبدأ الصراع فيما بينها حول الأسلاب . . ثم يبدأ الصراع بين بحارة كل منها . . ولهذا امتلأت حياة « رحمة » بالأحداث ، وحفلت بالإثارة ، كل يوم يحمل إليه جديدًا ، وكل ساعة تقدم له مفاجأة ، لذلك كان دائمًا أبدًا فى منتهى اليقظة لكل مايجرى حوله . . إن دستور الجميع هو السلب والنهب ، والحرب والقتال . . وتتحزب الجماعات ، وربما يفشل

القبطان فى إصلاح ذات البين ، ويضطر إلى عقاب البعض ، ويقرر طردهم من على السفينة عند أقرب جزيرة . . وقبل أن يصلوها قد تعود المياه إلى مجاريها . .

وكان « رحمة » محور أحداث عديدة جرت على ظهر السفينة التى أبحر فوقها منذ المطاردة الأولى المثيرة فوق أول سفينة . . حتى المعركة الأخيرة العنيفة مع « عبدون » . . وكانت هذه الأحداث تحمل إليه انتصارات تؤكد مكانته بين البحارة ، وتعلى من شأنه ، وقد نجح فى خلال هذه السنوات فى كسب العديد من الأصدقاء من بينهم . . ولكن صداقة أوثق ربطته بالمياه والجزر ، والسفن ، وظلت هذه الصداقة تربطه بها بقية عمره .

عرف « رحمة » الكثير عن شواطئ الخليج ، ففى منخفضاته ومستنقعاته انتشرت المخابئ التى يلجأ إليها البحارة هربًا من السفن القوية . . وفى سواحله الجنوبية الشرقية لم يكن عمق المياه يتجاوز الثلاثين مترًا ، وهو كثير النتوءات والحواجز الرملية والجزر الصخرية . . وقد أعجب « رحمة » بهذه البقعة ، وتعرف على بعض من سكانها الذين سموا « القواسم » وكانوا لايوقرون سفن أوربا ، ولايحترمون سفن الشرق ، إذ كانت لهم سفنهم الحربية المصفحة التى تجاوز عددها السبعين فضلا عن ثمانمائه سفينة صغيرة . . ، كانت تتحدى أكبر

البوارج وأحدثها تسليحًا . . وكان هؤلاء القواسم لايرحمون ، ولايُرحمون ، وقد رآهم « رحمة » يرقصون ويغنون أغانى الموت وهم يشهرون أسلحتهم للقتال ، ويبعثون الرعب والخوف فى أعدائهم ، بل إنهم كانوا يرفضون الفدية ويعتبرونها سرقة للأحياء ويصرون على أن يرثوها عن أصحابها بعد أن يفقدوهم الحياة .

وتعرّف « رحمة » إلى الجزر ، عشرات منها ، لم يكن يستقر فى إحداها ، وهى تذكره دائمًا بجزر السندباد ، تنتظره وراء كل صخرة من صخورها مفاجأة ، والموت يترصد له عند كل منعطف ، عرف جزر البحرين ، وزارها أكثر من مرة . . ومر بجزيرة « هرمز » عند مدخل الخليج ، وأعجبته كثيرًا ، وشاهد فيها تجارًا من كل مكان ، مراكبهم تمتلئ بالتوابل والأحجار الكريمة ، والعاج ، والأقمشة النادرة من صوف وحرير . . ومن مرفأ هذه الجزيرة كانت السفن تنطلق حاملة كل شيء إلى شتى أنحاء العالم . . غير أن الحرارة فى هذه الجزيرة لاتطاق ، وتزيد منها الشمس الساطعة والسد الجبلى الذى يقفل كل منفذ للهواء والرياح ، وكثيرًا ماتهب من الصحراء عواصف ساخنة ملتهبة حاملة الرمال ، ويضطر سكان الجزيرة الى الهرب والإلقاء بأنفسهم فى الماء ، ينزلون فيه حتى رءوسهم انتظارًا لتوقف الرياح . .

أما السفن فقد أضحى « رحمة » خبيرًا بكل مافيها ، فإنها دنياه

وحياته . . داره وبيته ، حاضره ومستقبله ؛ هى كل شىء بالنسبة له ، يدب فوقها نهاره ويتوسد أخشابها ليلا ، وهى بلا مسامير على الإطلاق ، بل يدقونها بأوتاد خشبية ويخيطونها بخيوط مسحوبة من قشرة جوز الهند ، وهى خيوط متينة لا تأكلها المياه ، ومع أن هذه السفن بدائية سيئة الصنع فإنها تستطيع احتمال العواصف والأنواء ، مثل بحارتها . .

ولقد تقلب « رحمة » فوق عديد من هذه السفن . .

ومضت الحياة بالفتى البحار ، لا يمر يوم إلا ويشارك فى معركة ضد سفينة ، أو ضد زميل ، وأضحت المعارك جزءًا لايتجزأ من حياته اليومية كالأكل والشرب والنوم . . وقد يستغنى عن إحداها ولكنه لايحيا بدون معارك ، تصهره وتبلور أفكاره واتجاهاته وأهدافه . . وكان عليه أن يخطط لمستقبله الذى لابد أن يبنيه فوق هذه الأمواج ، ووسط تلك العواصف ، مستفيدًا من مواهبه الطبيعية ، وخبراته المكتسبة ، وقد جمع ذلك من حوله بعض البحارة . . فإنهم فوق السفينة يكونون جماعات صغيرة متنافسة متصارعة ، تستهدف كل منها الحصول على أكبر قدر من الغنائم إذا ما أغاروا على سفينة . .

وتكررت حوادث الإغارة . . إنها قد تختلف فى التفاصيل ، إلا أنها كانت جميعها متشابهة فى بدايتها ونهايتها ، وليس بينها مايستحق أن

يروى ، إلا أن واحدة من المعارك انتهت لغير صالح سفينة القراصنة ، إذ هاجمتها سفينة تحرسها بارجة لم يروها ، فأنزلت بهم ضربة قاصمة ، تعلق على أثرها « رحمة » بلوح من الخشب ، والموت يتراءى له وهو يطفو فوق الأمواج . . وأمدته ذكرياته عن السندباد بزاد كبير من الأمل ، ولقد تحقق حين التقطته سفينة تجارية ، اهتز « رحمة » طربًا حين اكتشف أنها تضم بحارة عربًا . . .

قضى « رحمة » بعض الوقت فوق ظهر السفينة ، استراح فيه وتناول طعامه راضيًا سعيدًا ، ولكن سرعان ما تبددت الفرحة حين اكتشف أن القبطان التركى الأصل ، يريد أن يبيعه فى سوق النخاسة عند أقرب جزيرة . . وغضب « رحمة » لذلك أشد الغضب ، وصاح فى البحارة :

هل أنقذتمونى من الغرق ، لتقتلونى بالعبودية ؟

سكت البحارة فى حيرة ، فهم لايملكون لأنفسهم شيئًا ، ولايستطيعون أن يرفعوا صوتهم فى وجه القبطان العثمانى من أجل أنفسهم ، فهو لايمنحهم أكثر من ساعات قليلة للنوم طيلة الليل ، كما أنه يستدعيهم خلالها فيفزع الواحد منهم ، ويجرى والنوم يملأ أجفانه ، وقد لبس إحدى نعليه والأخرى فى يده ، خشية أن يتأخر فيعاقبه . . وهم يتلقون أوامره الصارمة بلا مناقشة ، لا يكادون يسمعون مايقول

بسبب زمجرة الرياح التى تعصف بالواحد منهم وهو متعلق بالصارى كالقرد ينشر القلع أويطويه ، ويهبط فى لمح البصر لكى يجذب المجاديف بقوة وقد تجمدت الدماء فى عروقه من البرد ، وتتأرجح السفينة فتلقى به فوق خشب المركب أو فى قاعها ، والصرخات تنطلق بلا مجيب . .

مضت السفينة فى عرض البحر ، وكانت تنتظر « رحمة » أكثر من مفاجأة . . لقد انتشل البحارة رجلا كاد يغرق . . واكتشف « رحمة » أنه رفيقه وصديقه « عبدون » وكانت فرحته به عظيمة .

وذات صباح فوجئ البحارة بطائر أسود يحوم فوق السفينة.. وذهل « رحمة » لأن الجميع انهاروا لدى رؤيته ، ومعهم « عبدون » الرهيب . . وراح يسألهم عن السر فى قلقهم وخوفهم فإذا به يسمع لأول مرة فى حياته عن قصة أفظع سفينة قرصنة عرفها الخليج ، ويسمع عن صاحبها الذى يطلق هذا الطائر الأسود ، كنذير للمراكب التى سيهاجمها لكى تستسلم قبل أن يصل إليها . . وكان ظهور هذا الطائر معناه أن السفينة سوف تنهب ، وأنها وبحارتها سيكونون طعامًا للأسماك . .

سأل « رحمة » صديقه « عبدون » :

– لماذا لم أسمع من قبل بحكاية الطائر الأسود ؟

أجابه « عبدون » :

– البحارة يخافون من سرد روايتها . .

– ألا يمكن التغلب على سفينته ؟ .

– مستحيل . . ومقاومتها تزيد قبطانها ضراوة ووحشية . .

جرى « رحمة » يسأل القبطان التركى فى قمرته عن خطته ، فإذا به يقول وهو يرتعد ويكاد يبكى :

– لابد أن نستسلم . .

سأله « رحمة » :

– ألا نستطيع المقاومة ؟

– معنى ذلك أن نموت جميعًا . .

– ليتكم تركتمونى أغرق ، كان ذلك أشرف . .

غادره « رحمة » وهو يكاد يتمزق غيظًا وضيقًا ، وكان يفكر بسرعة ، وسفينة القراصنة تلوح من بعيد كنقطة سوداء ، تقترب لتلحق بهم . .

وفى سرعة استدعى « رحمة » إليه « عبدون » ، وبقية بحارة السفينة ، وسألهم .

– هل ترضون بالاستسلام ؟

قالوا : وماذا فى يدنا ؟

قال « رحمة » :

— عندى خطة . . آمل أن تنجح . .

قالوا : لو أنها نجحت ، سوف نجعل منك ربّانًا لسفينتنا . .

قال « رحمة » :

— هذا آخر ما أفكر فيه . .

أسرَّ « رحمة » فى إيجاز شديد بخطته إلى البحارة ، فاستقبلوها فى اهتمام شديد ، وأعجبوا بها كثيرًا ، وأقسموا بين يديه أن يبذلوا أرواحهم من أجل أن تنجح . .

وعندما اقترب مركب « الطائر الأسود » ارتفعت الراية البيضاء فوق السفينة التى تحمل « رحمة » وانعقدت فوق السفينتين سحابات من الدخان نتيجة قذيفة أطلقها القراصنة فى الفضاء ، ليهتز معها البحر والسفينتان . . وكان واضحًا أنها أُطلقت للإرهاب لاأكثر ولاأقل . . وسرعان ماالتصقت السفينتان ، ووصلت بينهما دعامات خشبية اعتلاها القراصنة ، وهم يصرخون فى نشوة ، وينطلقون كالصقور الجارحة من سفينتهم إلى السفينة المستسلمة التى وقف بحارتها قرب الدعامات فى صمت وحزن ، منكسى الرءوس لاتبدو عليهم أى رغبة أو استعداد للمقاومة ، يرقبون فى أسى وخوف القادمين عليهم . . كانوا صفر الشعور بيض الوجوه ، زرق العيون ، على قسماتهم ملامح الشرّ

والحقد والبغض ، وتنطلق من صدورهم صيحات متوحشة ، وهم يلوحون بالسيوف بين أيديهم ويقفزون واحدًا بعد واحد إلى السفينة السليبة ، ويجرون إلى غرفها وقراتها وبضائعها فى جشع وطمع ، أعمى عيونهم عن « رحمة » وصحبه .

تسلل « رحمة » إلى الدعامات الموضوعة بين السفينتين ، ومن خلفه عدد كبير من البحارة العرب . . وما إن أصبحوا فوق سفينة الطائر الأسود حتى رفعوا الدعامات فى لمح البصر . . وانقضوا على من فيها من قراصنة وبحارة ، وألقوا بمن قاومهم فى البحر ، وحبسوا الباقين ، ثم وقفوا وراء المدافع المصوبة إلى سفينتهم ، وأطلق « رحمة » قذيفة مدوية ، سقطت فى البحر لتثير الأمواج والرعب فى قلب القراصنة ، الذين فوجئوا بأن « رحمة » قد استولى على سفينتهم القوية ، وتخلص من رجالها . .

« بهت » الطائر الأسود وقراصنته ، واضطروا لأن يَدَعُوا كل ما وصلت إليه أيديهم ليرفعوها فى الهواء تحت تهديد مدافعهم . . وهم أكثر الناس دراية بها ، فقد جهزوها بالذخيرة التى يمكن أن تنطلق فى ثوان لتصيب صدورهم . .

لقد أسقط فى يدهم ، و « عبدون » يمسك بالطائر الأسود ويقيده ، والبحارة العرب يقبضون على القراصنة الأوربيين ، ويلقون

بهم سجناء.. مع القبطان التركى الأحمق الذى لم يستطع أن يستوعب هذا الذى يجرى من حوله..

وبعد أن استتب الأمر، راح البحارة العرب يلوحون فى فرح بالغ يحيون الربان الجديد الجرىء.. «رحمة بن جابر»..

* * *



٥

الملاّح المحارب

رست سفينة الفتى « رحمة » ورجاله ، قرب المكان الذى أقلعت منه سفينة القراصنة منذ أعوام بعيدة وهى تحمل « رحمة » الصغير الذى دل رجالها على مكان عين الماء العذب .

وعندما هبط الفتى إلى أرض بلاده ، مضى يستعيد ذكرياته مع كل شبر من الأرض : هنا ملعب طفولته ، وهنا مرعى أغنامه ، وهنا كان يسبح على الشاطئ ، ومن ذلك المكان كان يركب السفن مع أعمامه ، وعبر هذا الطريق كان يصل إلى بيته ، لقد قطع هذا الطريق بخياله ، فى يقظته وأحلامه ، عشرات المرات ، وهو على ظهر السفن التى كانت تمخر به عباب الماء ، وكم تمنى أن يضع قدمه على هذا الطريق طيلة سنوات غيبته . وها هو ذا يحقق أمانيه ويخطو على الأرض الحبيبة خفيفًا سعيدًا . وفى لهفة شديدة إلى لقاء أمه بعد غيبة طويلة .

ها هو ذا البيت أخيرًا . .

لم يتغير شيء ، فيا للحياة ! النخيل كما هى ، والرمال ، وصوت العنزات ، كأنما هو عائد من رحلة قصيرة إلى دار عمه ؛ أو إلى بيت خاله .

واندفع رحمة إلى أمه يعانقها ويبكى بين ذراعيها ، والدموع تتساقط من عينيها دون أن تقوى على التعبير عن نفسها بالكلمات ، وبعد فترة مضت الأم تردد فى حنو وحب :

— رحمة . . رحمة . .

وتلقته أخته بنفس الحفاوة والحماس والحب والشوق والدموع ، ولكن أمه احتضنته من جديد ، ثم أجلسته إلى جانبها وهى تضع ذراعيها حول كتفه وتردد :

— ولدى . . ولدى . .

ومضى وقت طويل قبل أن تهدأ الأم وتثوب إلى رشدها ، وتسأل ولدها عن حاله ، وعن سنوات غيابه ، ما أكثر ما تريد الأم أن تسمع ، وما أكثر مايريد الابن المغامر أن يخفى من أحداث ذكرياته . .

وتكلم « رحمة » قليلا ، وسمع أخبار الأم والأخت عن الحياة الرتيبة الهادئة على الرمال حيث لا أمواج ولاأنواء ، كل ماهناك أن شقيقته ستتزوج من « خليل » ، وفى نيتها أن تغادر المكان معه بعد أن رحلت الأسرة كلها إلى جانب من قطر . .

وكان لقاء « رحمة » بصديقه القديم « خليل » كله شوق ولهفة ، وتبادلا الأخبار فى صدق وصراحة ، وعرف « رحمة » أن الأسرة الصغيرة قد رحلت مع القبيلة – آل خليفة – إلى قطر ، وأصرت أم « رحمة » على البقاء فى انتظار عودة ابنها . . كانت واثقة من أن ابنها سوف يعود إليها يومًا ما ، ولكن القبيلة لم تنتظر بعد أن ضاقت بحكام البصرة الجدد ، القادمين من شرق الخليج ، مهددين بغزو بلادهم وقتلهم ، واختطاف نسائهم وأطفالهم وبيعهم فى أسواق النخاسة .

لقد رفضت القبيلة الحياة تحت نير التهديد والوعيد ، وحملت أمتعتها تاركة الموطن إلى أرض جديدة . أما أبناء عمومتهم فقد أعلنوا أنهم سوف يبقون حيث هم ، وسوف يدافعون عن الأرض والعرض ولن يستسلموا للغزاة من الفرس .

وقال « رحمة » : كل منهما على حق . فالذين تركوا البلاد بحثًا عن أرض أخرى أكثر أمنًا واستقرارًا ، والذين آثروا البقاء دفاعًا عن أرض الأجداد ، كل منهما كريم النفس حر الضمير .

وقال « خليل » : ربما كان الذين يفضلون البقاء على حق مثلما نحن على حق فى الرحيل ، فلو أننا رحلنا جميعًا عن أرض الوطن ، لحققنا لهم غرضهم .

وجاءت أخبار من الذين رحلوا – إنهم حيث استقروا مهددون

بنفس الغزاة لقد جمع الراحلون الأهل والأصدقاء والأعوان ، ولكنّ الأعداء موجودون فى البحرين تشدهم إلى الخليج لآلئه الثمينة ، وهم يريدون البقاء فيها إلى الأبد . و« رحمة » يتحدث إلى صديقه القديم « خليل » عن الخليج ، ويستعيد ذكرياته عن الجزر التى زارها وغامر على شواطئها .

– ما أجملها وألوانها تتبدل ، وهى تتوهج فى مهرجان من الألوان الساحرة ! . فهى خلال النهار خضراء بلون الشجرة ، صفراء بلون الذهب ظهرًا ، داكنة بلون الرماد عصرًا ، حمراء بلون النار مساءً . . والمياه زمردية ، والسماء بنفسجية ، ومدينة المنامة بيضاء ، والسفن ترفع أعلامًا زاهية . . وأنت تشعر بأن هذه الجزر تسترعى اهتمام المبحرين فى الخليج كأنها واحة بحرية ظليلة تروى ظمأ المسافر وتمنحه الراحة التى يستطيع بعدها مواصلة السفر .

وغمغم « رحمة » ، وهو يمسح بيده على مساحة كبيرة من الرمال :

– ليتها تعود إلى وجهها العربى .

ثم مضى يخط بأصبعه ويرسم دون أن ينبس بكلمة واحدة ، وقد غفل تمامًا عن « خليل » الذى جلس يرقبه صامتًا معجبًا ، ومضى بعض الوقت قبل أن يرفع « رحمة » رأسه ، ليقول وهو يشير إلى الخطوط والرسوم :

– هذه هى جزر البحرين . . إنها ست وعشرون جزيرة . .

خليل : أتذكر مواقعها كلها ؟

رحمة : بالطبع . . كانت سفن القراصنة تلجأ إليها .

خليل : أتتصور أننا نستطيع تحريرها ؟

رحمة : ربما . . لاسيما أن الفرس مشغولون بما يجرى فى بلادهم .

خليل : من خططنا أن يتعاون آل الصباح من هنا ، من الكويت مع أبناء عمومتهم هناك فى قطر .

رحمة : سفن الأعداء أقوى سلاحًا وأسرع سيرًا ، ومدافعهم على الشط بعيدة المرمى عنيفة مدمرة .

خليل : ومن ورائهم حكومة ودولة وجيش ، ثم الأوربيون . . هل يرضون عن هذا الذى نفعله ؟

رحمة : ومسقط وعمان ؟

خليل : المهم أن تشارك مع بحّارتك فى هذه المعركة .

رحمة : إن سفنى وبحارتى فداء لبلدى ، وأنا على استعداد لأن أضحى بعمرى فى سبيل وضع حد لمهزلة وجود أجانب دخلاء على شطنا العربى من الخليج . .

وبدأ « رحمة » يشرح لصديقه خطته فى إسهاب وباهتمام كبير بالتفاصيل ، كان واضحًا أنه لايريد أن يترك شيئًا للمصادفة . وقد

ذهل « خليل » لهذه القدرة الفائقة ، والبراعة الفذة ، والذكاء الشديد . وأدرك أن السنوات التى باعدت مابينه وبين صديقه قد ساهمت فى خلق شخصية أخرى غير ذلك الطفل الذى غاب عنه زمنًا طويلا ليعود نموذجًا فريدًا .

وعلى صفحة المياه جرى هذا الذى كان يخططه « رحمة » على الرمال ، ورست مئات الزوارق الصغيرة على شطآن جزر البحرين ، فى أماكن خالية من السكان ، وهبط من تلك الزوارق أناس كالأشباح ، وتسللوا فى جنح الظلام مقتربين من القلاع ، يرقبونها من خلف بعض الصخور والنباتات البرية فى يقظة واهتمام .

وأمر « رحمة » رجاله بأن يسكبوا فى البحر مالديهم من مياه عذبة . وكاد الأمر يصعق الجنود من الدهشة ومضوا يسألون :

– لماذا تلقى بالماء العذب إلى البحر؟

فقال « رحمة » فى إصرار : عليكم بالطاعة أولا .

وبعد تردد استجاب الجميع لأمر قائدهم « رحمة » وصبوا الماء الذى يحملونه فى البحر وهنا قال لهم :

– خذوا الماء من عدوكم ، وإلا فلنمت عطشًا . .

وبدأت المعركة ، فإذا سفن من الجنوب الشرقى ومن الشمال الغربى تهاجم تلك الراسية ، فتبتعد هذه لكى تعطى فرصة لمدافع البر ، ولكن

أولئك الذين تسللوا كالأشباح إلى الجزر فى الزوارق الصغيرة مضوا يضربون مدافع الحصون من الخلف فيخرسونها . .

واستفاد « رحمة » من كل خبراته الطويلة المستمدة من مغامراته فى البحار ، ومن دراسته لمواقع الجزر ، ومن فهمه للمد والجزر خلال ساعات النهار المتتابعة ، ويتحرك فى دقة وحرص . ووقفت سفن ثلاث وسط مياه الخليج على شكل مروحة تقطع الطريق على أى معونة أومدد يأتى من الناحية الشرقية . .

وكان من مهمة بعض السفن العربية أن تجتذب السفن الراسية فى البحرين إلى منطقة يعرفها « رحمة » معرفة جيدة ، ويعرف أن بقاعها صخورًا مدببة ذات أطراف كحد الموسى قادرة على تمزيق أى سفينة ، وكان « رحمة » يحاصر السفن ويدفعها دفعًا لكى تصل إلى هذه المنطقة وتقطع عليها طريق العودة ، فإذا بها بين هول الصخور البحرية وبين نار القذائف المدوية . .

وعندما شعر الفرس بأن لاأمل لهم فى كسب المعركة رغبوا فى تفويت الفرصة على العرب ، وعقد هدنة يلتقطون فيها أنفاسهم . . فما كان منهم إلا أن بعثوا رسولا إلى « رحمة » يعرضون عليه خمسة آلاف قطعة من الذهب راح الرسول يزيد فيها حتى بلغت خمسة وعشرين ألفًا من أجل أن ينسحب بسفنه ورجاله من المعركة .

وغضب « رحمة » غضبًا شديدًا من هؤلاء الرسل الذين يتصورون أن فى استطاعتهم أن يشتروه . . ويعتقدون أنه مجرد بحّار وربان . وقرصان يبيع نفسه لمن يدفع أكثر ، وعندما طلب إليهم أن يكفوا عن هذه المساومة استمروا فى زيادة المبلغ الذى سيدفعونه له ، فما كان منه إلا أن أعلن أنهم لن يعودوا لزملائهم . .

وشدد الهجوم مع رجاله ، غير عابئ بتلك القذائف التى تنهال على سفينته من مراكب أعدائه ، وقلاعهم . . وكان يتعرض للموت فى كل لحظة ، إلا أنه كان قد آل على نفسه أن يقاتل هذه المعركة بكل مايملك ، لذلك رفض العودة إلى الخطوط الخلفية ، وظلت سفينته فى المقدمة : تصيب وتُصاب . . وهو يشارك جنوده فى القتال ، ويتقدمهم إلى الأرض بالسلاح الأبيض ليطهر الطريق أمام الزاحفين ، وينجح فى ضرب الأعداء ضربات قاصمة ، ويحسون أنه يقاتل كأنه جيش كامل . . فتتحول قوات كثيفة لمقاومته ، ومحاولة قتله ، ويتفاداها ببراعة ، ولكنها بعد أن فقدت المئات عن طريق سيفه البتار تستطيع أن تضرب تجمعًا يضمه ، ولايبدو من بين أفراده . . وأصابته شظية فى وجهه أفقدته إحدى عينيه ، وزادته إصرارًا على مواصلة القتال إلى أن يُجلى أعداءه عن هذه الجزر الساحرة .

واستمر يقاتل . .



وانجلت المعركة عن نصر مؤزر للعرب القادمين من قطر والكويت . . لقد دفعوا مئات الشهداء ثمنًا للنصر ، كما دفعه أجدادهم ثمنًا لانتصاراتهم فى أجنادين واليرموك والقادسية . .

وبحث الجميع عن « رحمة » . .

كان قد باعد مابينه وبين بحارته وجنوده وأصدقائه ، يذرف الدمع من عين واحدة ، بعد أن سلبته المعركة إحدى عينيه . . وكان يتطلع إلى المرآة الصغيرة ، وينظر إلى صورته فيرى وجهه الذى شوهته الجروح ، وزاده فقد عينه تشويهًا على تشويه . وهو ينظر ويتأذى ويبكى فى حين كان الجميع يبحثون عنه ليحملوه فوق الأكتاف ، وليجعلوا منه رمزًا للبطولة والجسارة والذكاء . أما هو فكان يتذكر كلمات ذلك العرّاف العجوز ، ذى اللحية السوداء الكثة ، والعينين اللامعتين الذكيتين ، والوجه الأسمر الباسم ، الذى حدق فيه لحظات قبل أن يقول له .

– يا « رحمة بن جابر »
عين ماء تقودك إلى الماء
تفقد العين وتسود الماء

وغمغم « رحمة » فى حزن وهو قابع فى عزلته :

– هأنذا قد فقدت عينى . ماذا تُجدى سيادتى للماء ؟ . . ياللنبوءة .

٦

بنت السلطان

قالت الأم :

– لقد كُتِب علىَّ يا « رحمة » أن أستقبلك يا ولدى لأودعك .

ابتسم « رحمة » ، وقال :

– هذه هى حياة البحارة . .

– لن تطمئن نفسى وأنت بعيد بين يدى هذا الوحش الذى تسمونه بحرًا . .

ضحك « رحمة »، وهو يهمس :

– لم يعد وحشًا بالنسبة لى . . إنه صديق ورفيق . . بل أنا سيده . .

– ولكننى أريدك أن تستقر . .

– من أجل هذا جئت . .

هتفت الأم :

– حقًّا ؟ . .

– نعم ، أريد أن أحقق أحلامى . . وأ . . وأتزوج . .

– ممن ياولدى ؟

– من . . بنت السلطان . .

– ماذا ؟ . . بنت السلطان ؟ . . إنك لم ترها . . ثم . . إن هناك أخبارًا تقول إن شابًّا من سادة بنى كعب سوف يخطبها ، وسوف يأتى موكب كبير لم تشهد الجزيرة مثله من أجل هذه الخِطْبة . .

كان بنو كعب قد قدموا من شبه الجزيرة وتمركزوا فى شمال الخليج العربى وفرضوا سيطرتهم على منطقة شط العرب ، وبدءوا ينهبون ويسلبون ويقطعون الطرق أمام القوافل بدون أن يستطيع أحد أن يوقفهم عند حدهم . . وقد حاول الفُرس ضربهم ففشلوا ، واستخدموا الأمير مهنا ضدهم ، ولم ينجح ، وزادهم ذلك قوة على قوة فهاجموا السفن الأوربية التى عجزت عن ردهم ، واستنجدت بالعثمانيين الذين لم يكن فى يدهم شىء حيالهم . .

وشهدت المنطقة موكبًا رائعًا نظمه بنوكعب ، وطارت أخباره هنا وهناك ، وكانت هناك قافلة برية تضم عشرات الإبل والخيول ، والمنشدين ، ويمضى معها بضائع مئات من الرجال الأشداء ، لا بسى الدروع ، حاملى الأسلحة ، يضفون عليه سحرًا . . وكان يمضى فى

البحر موكب بحرى آخر ، من سفن ذات أَشْرعة ملونة ، عليها بحارة أقوياء ، وكان منظرها فى الليل رائعًا وقد أضيئت مشاعلها . . وتساءل الناس :

– ما خطب هذا الموكب الأنيق ؟

وكانت الإجابة : أن أصحابه فى طريقهم للكويت . . يريدون مصاهرة الشيخ عبد الله . . سنخطب ابنته لواحد من شبابنا . .

كان واضحًا أن هذا الموكب السّاحر يخفى شيئًا ما عن عرب هذا البلد الصغير المسالم . . لذلك اندس وسط الموكب شاب نحيف ، بعين واحدة ، يقظة لكل ما يدور حوله وكانت أذناه مفتوحتين لدبيب النمل ، تتسمع الكلمات من هنا وهناك .

وقد بقى الشاب طويلا بدون أن يلحظه أحد ، فالموكب طويل والهمسات تتعالى ، وتصل إليه ، ليعرف كل شىء . .

وأخيرًا انسل من بينهم قبل أن يفطنوا إليه ، وكان قد أنهى مهمته ، وأدى الدور المطلوب منه . . لقد جاء متخفيًا من أجل أن يعرف حقيقة هذا الموكب والسر فى انطلاقه من شط العرب إلى شاطئ الخليج . .

سمع منهم أنه ليست هناك خطبة ولامصاهرة ، ولم تكن هناك نية

زواج أو نسب ، إنما هى واحدة من الحيل التى كان يلجأ إليها بنو كعب ، ومؤامرة ظاهرها موكب يسعى تحت لافتة ، بمهمة نبيلة ، باطنها غزو مسلح ، لبلد « رحمة » . . بعد أن أصبحت معبرًا لتجارة الشرق والغرب . . بين الهند وسوريا ، عندما استولى الفرس على البصرة . . وقد اختفت الأسلحة فى هوادج فوق الجمال على أنها هدايا ثمينة لأهل العروس .

سارع « رحمة » بعد أن فطن للخدعة الرخيصة التى يعدونها ، وترك الموكب عائدًا للكويت ، يعلن مواطنيه بما يُدبَّر لهم . . فأسرعوا يرتبون صفوفهم ، ويعبئون رجالهم ، ويجهزون سفنهم ، لمعركة طويلة دفاعًا عن الوطن والنفس .

واحتشدت الجموع : الرعاة ، التجار ، البحارة ، صيادو السمك واللؤلؤ . . كلهم يريدون أن يذودوا عن وطنهم . . ورسمت لهم الخطة . . إن عليهم أن يهاجموا سفن شيوخ بنى كعب وزعمائهم فى بداية المعركة ، وأن يفيدوا من الجزر والمد : فإن سفن بنى كعب لم يكن فى استطاعتها أن تتحرك ، فى حين أن قوارب ومراكب أبناء الكويت خفيفة صغيرة ، فى مقدورها أن تحيط بسفن الأعداء من كل جانب .

مضت سفن الكويت ، وجنودها ، ومعهم الربان « رحمة » بسفنه ورجاله ، يدافع عن وطنه ، وعن حبه العنيف . . وعندما

اقتربوا من موكب بنى كعب رأى الربان الجرىء أن يلجأ إلى نفس أسلوبهم ويحاربهم بذات سلاحهم ، فأعلن أن موكب الكويت يُرحِّبُ بالضيوف ويستقبلهم فى حفاوة . . واندست زوارقه ومراكبه تحمل الأعلام الزاهية البراقة بين سفن أعدائه الضخمة التى كان الربان يخشاها ، لأنه يعرف قيمة مدافعها الكبيرة التى تندفع من فمها القذائف النارية إلى مسافات بعيدة تدمر وتحطم ، وكان هدفهم أن يغرقوا السفن ويضربوا المدينة وحصونها حتى تستسلم أو تهدم فوق أصحابها .

لقد كان لقاء الموكبين غريبًا ؛ كل منهما يتحين الفرصة من أجل أن يوقع بالآخر ، والحرب خدعة . . وعند الرقة – وهى قطعة من البحر قرب جزيرة فيلكا شرق الكويت – تناقل البحارة كلمة السر المتفق عليها . .

وبدأت المعركة . .

كانت ضارية عنيفة . . السفن الصغيرة تحاور وتداور ، تكر وتفر ، تضرب وتهرب . . وكل أمنيتهم أن تغرب الشمس ، فهم يعرفون جيدًا أن المياه عند الرقة تقل ليلا وقت الجزْر ، فلا تستطيع السفن الكبيرة والمتوسطة المرور منها . . وكان الأمير عبد الله قد شعر بالقلق ، فإن جنوده وسفنه قد مضوا منذ وقت بعيد ، ولم ترد أخبار من الجبهة طيلة الوقت الذى كان كل من الموكبين يخدع الآخر ،

وأحس الرجل بأن رجاله بسفنهم الصغيرة وأسلحتهم المتواضعة سوف يكونون عرضة للفناء أمام عدو لا قِبَل لهم به ، ولاقدرة على قتاله . . وأدرك أنه قد عرضهم لمهمة ثقيلة ، فوق طاقتهم ، وتزيد على احتمالهم ، وبدأ الندم يتسلل إلى نفسه ، وهاجمته الهواجس ، وراح يفكر فى سبيل ينقذهم عن طريقه من الموت ، ويعيدهم سالمين . .

كان « خليل » – صديق « رحمة » وابن خاله – قد تخلف رغمًا عنه ، ولم يسر مع ركب المقاتلين ، لمرض طارئ ألم به ، وظل طيلة الوقت قلقًا . . يعنف نفسه ويلومها لأنه لم يمض معهم . . فإذا بالأمير يستدعيه ليطلب منه أن يكون رسوله إلى الجنود ليعودوا بدون أن يلتحموا بالأعداء ، إذا كان ذلك فى استطاعتهم . . أو أن يتراجعوا بأقلّ قدر ممكن من الخسارة ، فإن عدوهم أقوى ، وأسلحته أمضى ، وفرصته للنصر أكبر.

أبحر « خليل » بسرعة ، وكانت المعركة محتدمة ، والجنود البواسل بين كرٍّ وفرٍّ ، يحاولون الوقيعة بجنود أعدائهم . . ووقف « خليل » من بعيد يرقب المعركة قبل أن ينبس ببنت شفة ، وحانت منه التفاتة إلى سفينة « رحمة » . . إنه يعرفها جيدًا من بين مئات السفن . . كانت باسلة مثل ربانها . . تهاجم . . وتداور . . وتحاور . . تقدم . . وترجع . .

نجح « خليل » فى لفت نظر بحارة سفينة « رحمة » إليه ، فعادت إلى الوراء قليلا ، إلى الخطوط الخلفية . . وصعد « خليل » إليها يحمل الرسالة . .

قال « خليل » :

– الأمير يريد أن تعودوا . . . وتكفوا عن القتال . .

هتف « رحمة » : كيف هذا ؟ ولماذا ؟

قال « خليل » :

– هو يشفق عليكم . .

صرخ « رحمة » :

إننا لو تراجعنا الآن لأجهزوا علينا . . لقد فات الوقت .

سأل « خليل » :

– والحل ؟ . .

سكت « رحمة » قليلا يفكر . .

وبعد لحظات هب واقفًا يهتف : وجدت الحل . .

وفى كلمات سريعة تتقاذف من فمه كالحمم . . كأنها قذائف المدافع وطلقات البنادق أوجز خطته . . وهبط « خليل » من فوق ظهر السفينة ، ورجع إلى مركبه . .

وبعد لحظات شاهدت السفن هذه المركب الجديدة ، التى يستقلها

« خليل » ، وقد رفعت راية سوداء ، ومن فوقها يهتف هو وبحارته :

– ياجنودنا . . يابحارتنا . . يارجالنا . .

وأصاخوا السمع ، فإن دوى المدافع يغطى على الكلمات ، وصوت المعركة أعلى من كل الأصوات . . ولكن الرسول كان مصرًا على أن يبلغ رسالته إلى الجنود المقاتلين . . فاستمر يهتف :

– أميركم عبد الله يقول لكم . . سوَّد الله وجوهكم . . إلى الآن لم تناجزوهم للقتال ؟ . . أتظنون أن المرء يموت قبل يومه ؟ . .

دوت الكلمات بين السفن ، وتناقلتها أشرعة السفن ، وتحدث بها البحارة ، وسرت كالنار فى الهشيم . . وصرخ فيهم « رحمة » :

– إن المرء لايموت قبل يومه . .

وحركت الكلمات همتهم ، كأنها طبول مدوِّية . . كأنها قذائف عنيفة . . فانهالوا على أعدائهم فى بسالة ، لاتخيفهم المدافع ، ولاترهبهم القوة ، وزحفوا . . وضربوا . . سفينة تغرق ، وأخرى تهرب ، وثالثة تستسلم ، وزئير رحمة وقذائفه توقع الرعب فى قلوب الأعداء . .

إنه يضرب بلا رحمة . . إنه يقفز فوق سفنهم بلا خوف . . إنه يستولى على سلاحهم بلا رهبة . . إنه يقاتلهم بلا مبالاة . .

لقد ضرب سفينة زعمائهم ، واستطاع أن يوقع بهم أكبر هزيمة . .

وعندما شهد بنو كعب شيوخهم وقد قُتلوا أحبطت همتهم ، وخارت قواهم ، ورغبوا فى الانسحاب ، ولكن سفن الكويت لم تعطهم فرصة لذلك ، كما أن الجزر حال بينهم وبين أن تمضى سفنهم الضخمة فى المياه ، فوقفت مكانها تتلقى الضربات القاتلة المميتة ، بلا قدرة على المقاومة ، ولا فرصة للدفاع عن النفس . . وانسحبت فلولهم مهزومة ، تجرر أذيال الفشل . .

وارتفعت أعلام النصر فوق سفن الكويت ودقت طبوله . .

وعاد الأسطول خفّاق الرايات يسوق سفن أعدائه ، وماغنمه من موكبهم الطويل فى البحر ، فى حين كانت قوافل بنى كعب تسارع بالهرب ناجية بنفسها . . وشقت السفن طريقها فى البحر إلى الميناء .

وكان هناك استقبال رائع حافل للمنتصرين . .

ولكن رحمة لم يشعر بالحفاوة . . كان يفكر فى (بنت السلطان) .

وعاد « رحمة » إلى أمه يسألها :

– ألا يكفى بلائى فى القتال ليكون شفيعًا لى عند السلطان ؟ . .

سكتت الأم لحظة قبل أن تقول :

– يبدو يا « رحمة » أنك تنسى نفسك كثيرًا . .

سألها :

– لماذا يا أمى ؟ . .

قالت :

– حكاية بنت السلطان هذه ، كان يجب أن تنساها . . إن حكايات أهل أبيك عن الأمير ، وبنت السلطان . .

وضحكت وهى تضيف :

– وحكايات أهلى أيضًا ، مازالت عالقة فى رأسك . .

– لماذا لانحقق فى حياتنا مافى حكاياتنا ؟ .

– إننى أتمنى لك يا ولدى فوق ما تتمنى لنفسك . . ولكن طموحك هذا مدمر ، وأخاف أن يطعنوك فى كرامتك وكبريائك . .

– من يجرؤ ؟ .

– قد يقولونها لك فى مواجهتك ، وهم لايعتبرونك فارسًا من فرسان البحر ، ولايعدُّونك بطلا من أبطال التحرير . . لست فى نظرهم سوى . . بعين واحدة . .

– ولكننى لست كذلك . .

– أنت تقلدهم . .

– بل أستعيد حقوقنا . . أنا لم أذهب لبحرهم وخليجهم ، وإنما هم الذين جاءوا إلى هنا . . إلى بحرنا وأرضنا . .

– يقولون إنهم جاءوا للتجارة . .

– التجارة ومن بعدها الراية . . إنهم يتجرون بحياتنا . .

ومستقبلنا . . ومياهنا . . وبرنا . . وموانينا . .

– أنت تكرههم .

– بالطبع . . هو ثأر قديم . .

– الذين قتلوا أباك هم العثمانيون . .

– أعرف ذلك . . ولكنّ الأوربيين قتلوا الألوف من أهلى فى البحر . .

– كنا لسنين طويلة فى البر ، ولم نعرفه منذ وقت بعيد . .

– بل عرفناه وسدناه . . وقضى البرتغاليون على سفن أهلنا فى مصر . .

– متى كان ذلك يابنى ؟ . .

– منذ وقت بعيد منذ نحو ثلاثة قرون . . ولكننا لن ننسى . .

– أتثأر بعد كل هذه السنين ؟

– نعم . . إن البحر الأخضر لابد أن ينتقم للبحر الأحمر . .

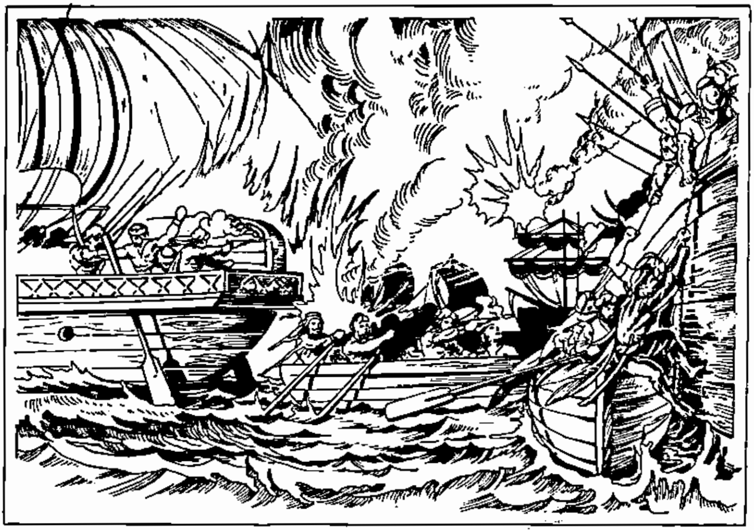
وتسكت الأم . . إنها تتمنى لولدها فوق مايتمنى لنفسه ، ولكنها تعرف أهلها العرب وتدرك عاداتهم وتقاليدهم ، وتشرق فى رأسها فكرة نيرة ، فتقول لولدها :

– ولدى . . هل كنت تحارب بنى كعب من أجل بلدك ، أم من أجل . . بنت السلطان ؟ ويبهت « رحمة » ولايجد كلمة يرد بها ،

وواصلت الأم كلماتها :

– ياولدى . . لست ندًّا لها . . أنت رجل بحر . . أعطيته عمرك . . وتحتاج إلى زوجة تصحبها معك فى سفينتك . .

وطارت الأحلام والآمال . .



٧

الربان الحاكم

خرج « رحمة » من قمرته ، وبجانبه ضيف لا يعرفه البحارة ، ولم يسبق لهم أن لاقوه ، ولو أنهم أنِسُوا إلى طلعته ، وهيئته تدلّ على أنه من كبار التجار أو الأعيان ، وعلى أنه لا صلة له بالبحر ولا برجاله . . وكان وجه « رحمة » يشرق بالفرحة ، ويسطع بالسعادة وهو يخطو على ظهر السفينة يوزع ابتساماته على البحارة ، ويربت ظهورهم ، وينثر عليهم كلمات حلوة لم يتعودوها منه ، وخاصة فى الشهور الأخيرة المثيرة . . لقد قضاها واجماً ، حزيناً ، صامتاً ، غارقاً فى بحار من التفكير لا تقل عمقاً عن تلك البحار التى تمخر سفنه عبابها ، ومن فوقها رجاله الذين تجاوز عددهم الألوف ، يسيطرون على الخليج كله ، ويهيمنون على شواطئه ، ويدفعون ثمن ذلك من حياتهم ، فهم يقاتلون القلق والضيق ، ويعيشون على حافة هوة يتردّون فيها فى أية لحظة . . وهم خلال ذلك كله لا يعرفون لسفنهم ، أو حياتهم ، ميناء

يستقرون عنده ، فلا يكادون يرسون عند شط حتى يقلعوا منه ، فهناك عشرات السفن تترصدهم ، ومئات الأعداء يتربصون بهم ، وألوف العيون ترقبهم ، والجميع ينتظرون تلك اللحظة التى ينقضُّون فيها على سفنهم ليغرقوها فى المياه ، تخلصاً منها ومن شرورها ، وقد اتخذ « رحمة » من إحدى الجزر مستعمرة له ، أسماها « رحماتاتيا » . . كانت جزيرة مجهولة حصينة لا قبل لأحد باقتحامها ، ولا قدرة لسفينة على غزوها . . ولكن البوارج الأوربية جاءت ذات مساء لتدك الجزيرة ، ويضطر « رحمة » إلى أن يحمل كل شيء إلى ظهر سفنه وينطلق إلى عرض البحر . . وكانت تلك الضربة واحدة من ضربات راحت توزعها أساطيل أوربا على الموانئ العربية . . فقد ضرب أسطول فرنسا عام ١٧٩٨ الإسكندرية ، ونزلت قوات نابليون إلى مصر ، وبعث إلى سلطان مسقط يطلب إليه إرسال سفنه التجارية إلى السويس . . وفى عام ١٨٠٦ ضرب أسطول إنجلترا رأس الخيمة ، ونزل الجنود إلى الثغر يسرقون وينهبون ، وهم الذين ضربوا الميناء بحجة وقف أعمال السرقة والنهب . . وفى عام ١٨٠٧ قام نفس هذا الأسطول بقيادة فريزر بالهجوم على الإسكندرية ورشيد ، ولكن أبناء مصر قاتلوا المعتدين وهزموهم شر هزيمة . . وسقطت هيبة هؤلاء الجنود ، وأصبح أسطول الإمبراطورية التى لا يغرب عنها الشمس لا يخيف أحداً ، حتى أن

القواسم فى الخليج استولوا على طراد يحرس بعثة إنجليزية إلى بلاد فارس عام ١٨٠٨ . . وذهب الإنجليز إلى الكويت فى تلك السنوات يلوحون بأغصان الزيتون ، وبالرّايات الخفاقة ، يريدون أن يرفعوها فوق تلك الأرض ، لحمايتها . . وكان السؤال : ممن يحمونها ؟ . . وكان السؤال بلا جواب ، لذلك كان الرد عليهم :

لا . . لا حاجة بنا إليكم . .

وخلال كل هذه السنوات ذاع اسم « رحمة » وشاع ، يثير الرعب والذعر فى البحر ، ويقبض الإتاوات من السفن التى تعبر الخليج ، وهو يرفض الإتاوات من سفن أوربا ، ولا يهادنها ويأبى إلاّ أن يطارد سفنهم ويطهر مياه الخليج منها . .

وكان « رحمة » بحاراً زاهداً ، لا يريد لنفسه شيئاً ، فلم تصبح لديه كنوز يخفيها مثل الآخرين ، ولا هو صار ثريًّا أمثل ، بل كان صاحب مبدأ يردده ويغنيه :

– هذه أرضى . . وهذا بحرى . . وأبى ضحى هنا . . وأبى قال لنا . . مزقوا أعداءنا . .

وكانت حياته بسيطة متواضعة ، لا يرتدى إلا اليسير من الثياب ، حتى أنه ما من أحد يستطيع تمييزه عن رفاقه إذا ما وجد بينهم أو سار وسطهم . . فهو لا يضع على جسده إلا جلباباً ، يظل عليه حتى

يستبدله بعد أن يبلى ، فيلقيه ويرتدى غيره . . ويسألونه :

– لِمَ هذا يا « رحمة » ؟

لا وقت عندى لأخلع وألبس . . هذه الأردية لا تجدى . . إنها لن تقينى الرصاص والسيوف . . فما قيمتها ؟ . .

وقد يحتال عليه البحارة من أجل أن يرتدى واحدة من أردية القراصنة الأجانب التى يستولون على سفنهم فيأبى قائلا :

– لست منهم ، ولا أنا مثلهم . . إنما أنا ضدهم ، وثائر عليهم . .

إنهم لصوص البحر ، والبر ، والبشر ، هم يحولون عالمنا إلى سوق كبير للرق والعبودية . .

أصبح « رحمة » معروفاً فى الخليج ، بل فى كل أرجاء الوطن العربى ، وصار قوة يحسب لها حسابها . . السفن الفارسية تعرفه جيداً ، وتخشاه وترهبه ، إذ تذكر معاركه معها فى البحرين ، وهو لا ينسى لها أبداً أنها سلبته نور عينه ، وسفن العثمانيين تضيق به وبالشكاوى العديدة التى تصلها ضده ، وتعتبره وريث الأمير مهنا ، ولابد أن يلقى نفس مصيره ، فيشنق فوق أعلى سارية فى سفنه ، والسفن الأوربية لا تأمن على نفسها منه إذا هى شقت عباب المياه من « بومباى » عبر الخليج ، وهو فى واقع الأمر شوكة فى حلوقهم ، تحول بينهم وبين السيطرة على هذه البقعة الملاحية الهامة ، وهم مستعدون لبذل أى

شىء للتخلص منه ، وتدمير أسطوله . . أما عرب الجزيرة فقد رضى عنه كثيرون منهم باعتباره بطلا أسطوريًّا ، وفارساً من فرسان المياه ، استطاع أن يكيل للأعداء الصاع صاعين ، وتمكن من أن يوقع بهم أكثر من هزيمة تناقلت الدنيا كلها أخبارها . . ولكن هؤلاء لا يملكون حمايته وهو فى عرض البحر ، ولا يستطيعون الدفاع عنه وعن سفنه لو أنه لجأ إلى إحدى الموانى . . لذلك شعر « رحمة » بالتعب وهو يواجه كل هؤلاء الأعداء ، ويُطارَدُ من الجميع ، ولا يجد من يقف بجانبه ويسانده من أجل عروبة المياه والأرض حول هذا الخليج الرهيب .

* * *

- تُرى ، هل يحمل هذا الضيف عرضاً جديداً ؟ . . هل حدث الريان الجرىء عن سفن جديدة فى عرض البحر يستطيع بحارته السطو عليها ؟ . . لقد ضاقوا بالبحر والقتال . . وهم يشعرون بأنهم يريدون شطًّا . . مرفأ . . ميناء . . هم يرغبون فى التخلص من الإحساس بأنهم ملاحون تائهون ، بلا أرض تأويهم . . بلا وطن . . خارجون على كل القوانين مطاردون فى البر وفى البحر . . ولا سبيل للاستقرار . .

هل يمكن أن يحمل إليهم هذا الرجل استقراراً ؟ . .

من أين أنت أيها العم ؟ . . انطق . . تكلم . . ربما عرفنا من

كلماتك ، لهجتك ، صوتك ، من أى أرض أنت . . وهل أنت رسول سلام أو نذير حرب ؟ . .

إنه طويل أسمر ، باسم ضاحك ، شامخ الرأس والأنف ، فى عينيه ذكاء ، ولكن الزمن ترك الكثير من التجاعيد على جبينه ، حتى أنك لتعطيه سنًّا أكبر من سنه . .

ولكن الرجل ظل يلوذ بالصمت ، يستمع إلى همس « رحمة » وقد يبتسم ، ويهز رأسه بالإيجاب أو الإعجاب ، وقد يبدى رأيه بإشارة رقيقة هادئة من يده . .

هذا الرجل الغامض أشاع كل هذه البهجة التى لا يدرون لها سرًّا ، ولا يعرفون لها سبباً . . لِمَ لا ينطق هذا الرجل الغامض ؟ . .

إن البحارة غير قادرين على تمالك أنفسهم . . إنهم يشعرون بحب استطلاع لا يقاوم ، لذلك راحوا يتمسحون فى « رحمة » ويدورون من حوله ، وهو مدرك تماماً لمرادهم ، فاهم كل الفهم مرماهم ، ولكنه ظل على صمته ، حتى انتهت السهرة ، وعندئذ استدعاهم إلى غرفته ليقدم إليهم ضيفه . .

. . قال « رحمة » :

ضيفنا أيها الإخوة ليس من رجال البحر . . ولكنه بطل ابن بطل . . اسمه السيد محمد المحروقى .

وأطرق الضيف خجلا . . وواصل « رحمة » حديثه :

أبوه السيد أحمد المحروقى قاوم نابليون ، وخاض هو المعركة بعد المعركة هنا على أرض الجزيرة العربية . .

– إذن هو من . . مصر . .

– نعم هو من مصر المحروسة . . من القاهرة . . من بلد النيل . . والأزهر الشريف . . سأدعه يتحدث . .

ابتسم الضيف ، وقال فى تؤدة :

أريد أن أعبر لكم عن سعادتى بوجودى بينكم . . إن شعاركم الذى رفعتموه « البحر الأخضر ينتقم للبحر الأحمر » هز وجداننا . . نعم ، ما من عربى فى مصر سمع هذه العبارة إلا وخفق قلبه بين ضلوعه . . إنه لرائع أن تذكروا أسطولنا الذى سيطر طويلا على البحر الأحمر ، وكان له مع البرتغال نضال سنين طوال . . وها أنتم أولاء تريدون أن تنتقموا له بعد قرون ثلاثة لم تكن لنا فى هذا البحر سفينة واحدة ، إذ سلبنا العثمانيون وإياكم كل شىء . . وقد يسألنى أحدكم :

– لماذا تحاربون من أجلهم ؟ . .

لقد جئنا لكى ننقذ الحرمين ، وننقذ أنفسنا ، جئنا لكى نؤمن سبيل الحجاج ، ونؤمن سبيل بلادنا للحرية . . عشنا طويلا فى ظلام

الاستعباد العثمانى ، وقد آن الأوان لكى يعلو شأن هذا البلد العربى – مصر– ليتبوأ مكانه بين بلدان العرب والمسلمين . . لقد أفقدنا السلاطين العثمانيون الكثير . . أفقدونا ديننا وخلقنا ، عروبتنا وبلادنا ، استقلالنا وحريتنا ، علمنا ومالنا ، زراعتنا وصناعتنا – وآن لنا أن نسترد كل هذا . . وليكن ذلك عن طريق « القوة » ، إنها وحدها فى هذا الزمان المعيار الحقيقى للمكانة . . نحن نريد أن نوطن مركزنا ، ونقوى هيبتنا إزاء هؤلاء الذين أذلوا بلادنا طويلا ، لذلك أعلنا الجهاد . .

سكت السيد محمد المحروقى قليلا ، قبل أن يواصل حديثه قائلا :

– وعلى شاطئ خليج عربى آخر ، يقابل هذا الخليج ، شرقاً ، ظللنا لشهور طويلة نعد أنفسنا للجهاد والقتال . . لقد وصلت إلى السويس قوافل الإبل ، كانت ثمانية عشر ألف جمل ، كل منها يحمل قطعاً صافية من الخشب نقلتها من حى بولاق بالقاهرة . . وقبل ذلك بشهور كانت هذه الأخشاب قد حملت إلى ترسانة بولاق من جميع أنحاء مصر ، ومن أرض سورياولبنان ، من أجل إنشاء عمارة بحرية ، وهناك اجتمع كل صناع المراكب فى بلدنا ، لقد مضى علينا اثنا عشر جيلا لم نصنع خلالها إلا الزوارق بعد أن أخذ سليم الأول كل صناعنا المهرة إلى الآستانة . . ولكننا نعرف السفن والبحر ، وشواطئنا أطول

من شواطئ الجزيرة البريطانية نفسها ، وشعبنا يرث فى قلبه خبرات خمسة آلاف عام . .

ففى قديم الزمان أبحرت سفننا المصنوعة من البردى ومن الخشب فى البحرين : المتوسط والأحمر ، وسيطرت أساطيلنا عليهما سيطرة كاملة . .

وخلال أشهر قليلة استطاع عمالنا المهرة أن يصنعوا سفناً رائعة ، ثمانى عشرة سفينة حملتها الإبل ليتم تركيبها فى السويس ، ونزلت إلى الخليج كى تستوعب الجنود والمؤن والذخيرة والمهمات لستة آلاف من المشاة . . وحملتهم إلى ينبع ثغر المدينة المكرمة ، فى حين سار ألفان من الفرسان عبر سيناء المقدسة من السويس إلى العقبة ، وانطلقوا على شط خليج العقبة ، ثم شاطئ البحر الأحمر ، وعند (ينبع) التقى المشاة والفرسان . . وزحف الجيش يعلى كلمة الله ، ويفتح طريق الحج ، حتى تم النصر له ، وها هى ذى طلائع قواتنا قد وصلت إلى هنا ، إلى شط الخليج العربى ، ودارت سفننا حتى وصلت إليكم . .

هتف « رحمة » :

— مرحبا بها فى خليجها . . وخليجنا . . لقد ناضلت سفنكم ضد البرتغال ، حتى أن البرتغاليين لم يستطيعوا استعمار أرضنا والسيطرة على خليجنا إلاّ بعد أن خلى لهم الجو ، ولم يبق لمصر أسطول فى البحر الأحمر .

ابتسم الضيف القادم من مصر وواصل حديثه :

وعندما وصلت طلائعنا إلى أرض الخليج تجاه البحرين لم تكن لدينا أى رغبة فى القتال ، فإن مهمتنا هنا محدودة ، وليست لنا أغراض ولا أطماع ، كل ما نريد هو أن يقوى ركزنا تجاه السلطان ، لتصبح لنا حرية فى الوطن وفى العمل .

قال « رحمة » :

– إن أصداء انتصاراتكم قد هزت الجزيرة ، وأعلنت البحرين عن رغبتها فى التعاون معكم . . ونحن أيضاً لكم ، وبكم . .

قال الضيف :

– لقد شعرنا من أول لحظة أن لنا فيكم نعم العون . . فإنك أيها الربان الكويتى الجرىء ، والملاح العربى المحارب وقد وقفت ضد الأجانب . . ضد العثمانيين والفرس . . ضد الأوربيين الغرباء . . ثم إنكم أيها البحارة الشجعان ساعدتمونا كثيراً فى قتالنا هنا فى هذه الأرض المقدسة التى سالت عليها الدماء طاهرة عزيزة . تروى قصصا بطولية خالدة . . وقد آن الأوان لكى أعلن لكم وأذيع عليكم قرار قائد قواتنا فى الجزيرة العربية :

« يعين رحمة بن جابر حاكماً على الدمام ومسئولا عن منطقة الأحساء » .

هتف رجال « رحمة » وصفقوا طويلا . . سعداء بالنبأ الجديد . . ورقص البحارة وغنوا للصباح . .

أخيراً أصبح لهم شط . . مرفأ . . ميناء . .

* * *

ورست سفن « رحمة » عند الدمام . . وأنزلت الأعلام السوداء ذات الجمجمة والعظمتين ، ورفعت علماً أخضر ، تزينه النجوم البيضاء . .

ونزل البحارة . .



وبدأت الحياة تدب فى الميناء ، وبدأ البناء . .

وكان أن أقام « رحمة » وصحبه قلعة كبيرة حصينة لتكون مقرًّا لقيادته . . ها قد أصبحت « عيناً » من الأعيان يا « رحمة » . .

ها قد تحقق شطر من النبوءة الثالثة للعراف الهندى . .

وبقى شطر « ويغلبك الماء » . .

لا ، لن يحدث . . إنك سوف تطلق الماء ، ولن تعود إليه بعد أن أصبحت حاكماً ، وصاحب قلعة ، تطل من نوافذها على سفنك الرابضة فى الميناء ، ومن فوقها رجال أشداء أقوياء ، لا قِبل لأحد بهم . .

* * *

ختام

رست سفينة الربان الجرىء ، « رحمة بن جابر » على ميناء الدمام ، وتنفس الصعداء ، وابتسم فى سعادة . . كم يريد أن يخلد للراحة بعد كل هذه المغامرات المتوالية التى واجه فيها الموت مئات المرات ، والتى كلفته كل سنى طفولته ، وصباه ، وشبابه ، ورجولته ، وقد أصيب خلالها كثيراً حتى أنه لم يعد فى جسده شبر إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة رمح . . وهو برغم كل ذلك لا يتمنى أن يموت فى فراشه ميتة الجبناء ، ولا يود أن يجد نفسه داخل قلعته كالجرذ الصغير ، حبيساً سجيناً ، يجرى بين الغرف والردهات ، ينتظر المصير الرهيب . . إن الراحة لا تعنى أن يغمض عينه الباقية عما يجرى حوله ، فهو يعلم أن كثيرين يريدون أن يثأروا منه لأنفسهم ، ويرغبون فى أن يوردوه مورد الهلاك ، هو وسفنه الرابضة فى الميناء تغطى صفحة المياه ، دون أن يستطيع أحد أن يحصيها عدًّا ، فقد أقبل البحارة من كل صوب وحدب ينضمون إليه بسفنهم ، ويعلنون ولاءهم له بعد أن سيطر

أسطوله سيطرة كاملة على الخليج ، وصار يتقاضى الإتاوات من سفن الأتراك والفرس والهنود ، ويغرق سفن إنجلترا وفرنسا وهولندا .

وقد ضاقت أوربا بهذا الذى يجرى فى دنيا البحر . فى البحر المتوسط سيطر على غربه أسطول الجزائر ، وعلى شرقه أسطول مصر . . أما البحر الأحمر فعاد من جديد لسيطرة مصر تغدو سفنها من السويس إلى ينبع وجدة ، وتعود بأنباء انتصارات جنودها . . وهاهم أولاء العرب فى الخليج يرهبون سفن هولندا والبرتغال ، بل سفن إنجلترا وفرنسا .. «القواسم» فى الجنوب ، «وبنوكعب» فى الشمال و«رحمة» من الدمام يقطع الطريق على كل سفينة عابرة . . وصار يتعين على إنجلترا أن تعمل ، وأن تأخذ بالمبادرة فهى تريد أن تثبت سيادتها للبحار ، وهى صاحبة الهند – أكبر درة فى تاج الإمبراطورية التى أصبحت لاتغرب عنها الشمس – والطريق إليها مهدد الآن بهذه الأساطيل .

وبدأت إنجلترا تفكر . . أين تبدأ ضربتها ؟

كانت رأس الخيمة هى عاصمة « القواسم » وأكبر معاقلهم ، وضربها يهدد القراصنة فى كل مكان . . ثم هى بلدة الربابنة العظام والملاحين الكبار أبناء ابن ماجد ، وترك أمورهم تستشرى على هذه الصورة سوف يدفع غيرهم إلى مواصلة ضرب سفن الإمبراطورية ،



وقطع الطريق إلى الهند . . ثم إن لدى إنجلترا مبررًا أخلاقيًّا ، ولافتة ترفعها أمام الرأى العام العالمى : إنها تكافح القراصنة ، إنها تضرب الرق . . دون أن تقول للعالم إنها تريد أن تحتكرها لنفسها . .

تحرك أسطول بريطانى ضخم تجاه رأس الخيمة عام ١٨١٩ بقيادة « وليم كير » وانهالت قذائفه على الميناء الكبير لتدك قلاعه ولتهدم دوره ، ولتدمر منشآته ، ولتقتل سكانه بلا رحمة . . ثم أنزل الأسطول جنوده ينهبون ويسرقون ويبيدون . .

ووصلت هذه الأنباء إلى « رحمة » فى قلعته . . كان قد أقام فيها وهو يشعر أنه ضيف ، ويحس بأنها ليست له ، ولاهو لها . . لذلك لم تتغير حياته كثيرًا عما كانت عليه . . ظل على زهده فى ملبسه وطعامه ، ظل على تواضعه مع بحارته ورجاله ، ظل على حبه للبحر ، والسفن . . لذلك توقع أن يكون هو الهدف التالى لسفن أوربا ، وأدرك أن الدور عليه ، لذلك استدعى إليه ربابنة السفن ، وقادة الرجال ، وتناقشوا فيما يجب عليهم أن يفعلوه لمواجهة هذا الموقف . .

قال أحدهم :

— لماذا لاندع البر؟ . . نحن هنا هدف ثابت . .

وقال آخر :

— نعم ، فى البحر نناور ، ونتحرك ، ونهرب . .

وحسم الثالث المناقشة بقوله :

— هل تذكرون ماجرى لنا فى « رحماتاتيا » . . لانريده أن يتكرر . .

وجاءت هذه الكلمات فى لحظة كان الربان الجرىء قد ضاق فيها بالبر ، وضاق البر به ، لذلك وقعت على وتر حساس من نفسه ، ووجدت لديه صدى طيبًا « إنه يشعر دائمًا أن البحر يناديه ، وهو شديد الحب له ، شديد التعلق به ، وليس فى يده إلا أن يستمع إلى هذا النداء ، وأن ينصاع له . . لقد تعود على أن ينام تهدهده أمواج البحر وتشنف آذانه الرياح ، لذلك كان يصيبه الأرق وهو فى حجرته الكبيرة الجميلة الهادئة فى القلعة ، ويشعر بالملل إذا طال به البقاء فى هذا المكان ، فكان يهبط إلى زورق من زوارقه ، ويظل يجدف إلى أن يهده التعب ، ويعود ليلقى برأسه على الوسادة لينام فى عمق . . وكثيرًا مايحن إلى عرض البحر ، فينطلق إليه يشارك رجاله بعض أعمالهم البحرية ، ويهاجم السفن ، ويأسرها ليضمها إلى أسطوله ، ويعود مستريحًا ، هادئ النفس ليسلم نفسه لفراشه . .

وقد ابتهج « رحمة » لقرار الربابنة . . يجب أن يكونوا مستعدين . . لابد أن ينقل كل شىء إلى سفنه ، فإذا ماضربوا القلعة استطاع أن يفلت هاربًا . . وعرف الأعداء هذا ، وكانوا يرقبون الميناء

من عرض البحر ببوارجهم الضخمة وسفنهم المصفحة ، ويدبرون المؤامرات من أجل القضاء على « رحمة » وبحارته وسفنه . .

وذات يوم جاءت « رحمة » أنباء عن سفن قادمة من الهند تحمل أموالا طائلة ، وبضائع كثيرة . . وكانت أنباء مضللة . . ولكنه خرج إلى عرض البحر ، وقد تناثرت على مسافات بعيدة مايزيد على خمسين سفينة ترصد مساره ، وترقب خط إبحار سفنه فضلا عن أنها كانت قد اتفقت مع قائد بحارة سفينته على أن يجنح بها بعيدًا عن بقية مراكبه ، من أجل أن تنفرد به سفن الأعداء . . ولم يدرك « رحمة » ذلك إلا بعد فوات الوقت ، وعندما شعر أنه محاصر حاول ببراعة أن يضرب إحدى السفن التى تقطع عليه طريق العودة للشط ، وقد استطاع أن يغرقها ، غير أنها استغاثت بزميلاتها ، فأقبلت قوافل من الأسطول تحيط به وتضربه بنيران مركزة عنيفة شديدة ، دون رغبة من جانبها فى إغراقه ، بل كانت تريده حيًّا . . وأحس أن المعركة خاسرة ، وأن خيانة قائد بحارته قد أوقعته فى هذا الكمين ، ومع ذلك استمر يقاتل ببسالة منقطعة النظير ؛ فهو يضرب بقوة ، ويتحمل الطلقات العنيفة ، ويصاب أكثر من مرة ، ويتحمل إصابته ، ويتحامل على نفسه ، ويمضى فى القتال فى ضراوة الأسود إذا استُثيرت . .

ولم تكن المعركة تسير فى صالحه ، ورأى أن الدائرة ستدور عليه ،



ويوشك أن يقع أسيرًا فى يد أعدائه . . عندئذ تذكر ماحدث للأمير مهنا . . وبيريك . . وكابتن كيد . إن أعداءه يريدون أن يشنقوه ، ويمثلوا به ، ويأبى هو أن يعطيهم الفرصة ، إنه من أُمّة يموت أبناؤها ويستشهدون ، ولايستسلمون . . لقد كان دائمًا أبدًا يخلى سفنه من كل قطعة قماش بيضاء ، لأنه آل على نفسه ألا يرفعها أبدًا فوق سفينة منذ رفعها قبطان السفينة التى أنقذته من الغرق ، وأقسم ألا يستظل بها طيلة عمره . . إنه يعلم جيدًا أن البحر أرْأف به من أعدائه ، فليكن طعامًا لأسماكه ، وحيتانه . . إنه لن يستسلم طالما هو على قيد الحياة . .

ومرت حياة « رحمة » كشريط سريع أمام بصره وهو يعد الذخيرة والبارود لأمر فى نفسه . . تذكر أعمامه وأخواله . . تذكر طفولة تقاسمتها الفروسية والبحرية . . وتذكر نبوءة الرجل الهندى صاحب اللحية الكثة والعينين اللامعتين ، والوجه الأسمر الباسم . . وكلماته . .

– يا « رحمة بن جابر »

عين ماء تقودك إلى الماء ،

تفقد العين وتسود الماء .

تصبح عينًا ، ويغلبك الماء . .

لقد تحقق كل مافى النبوءة وبقيت فيها كلمتان تتحققان الآن . . عام ١٨٢٠ بعد مايزيد على خمسة وأربعين عامًا . . « يغلبك الماء »

و « رحمة » يرفض أن يغلبه الأعداء ، ويرضى بالهزيمة من الماء . . وفجأة ذكر حلمه الذى رآه فى طفولته . . . لقد تكاثر الصبيان ضده ، كل منهم يأخذ بتلابيه من ناحية ويتجاذبونه بينهم ، فأصابه الدوار وشعر كأنما هو وسط أمواج بحر تتقاذفه . . إنه يحس بالدوار ، ولكن صياح الديك وصوت أمه لن ينقذوه الآن ، ولن يوقظوه من نومه بل إنه سوف ينام طويلا . . طويلا . . طويلا .

لقد عمد « رحمة » إلى نسف سفينته بكمية من البارود والديناميت ، وتطايرت أشلاؤها ، وأشلاؤه ، ومات ميتة أسطورية مثل حياته ، وقدم للناس تراجيديا يونانية « عنيفة » .

* * *

وشهدت مياه الخليج بعد أيام ، واحدًا من رجال البحر . . إنه « خليل » صديق عُمْر « رحمة » وقريبه . . إنه يستقل سفينة تمخر عباب الماء ، وفى أعماقه قبر « رحمة » وعلى سطح الماء تناثرت الأزهار التى ألقى بها « خليل » وهو يذرف دمعه على الربان الجرىء ، ويقول . .

– رحمة الله على « رحمة » .

* * *

المراجع

تاريخ الكويت – للشيخ عبد العزيز الرشيد

أضواء على تاريخ الكويت – قدرى قلعجى

الخليج العربى – قدرى قلعجى

الخليج العربى – أرنولد ولسون

الخليج العربى – جان جاك بيرى

الاستعمار فى الخليج الفارسى – د . صلاح العقاد

تاريخ الحركة القومية فى مصر – عبد الرحمن الرافعى

حديث السندباد القديم – د . حسين فوزى

ألف ليلة وليلة

وذلك عدا دوائر المعارف ، وقصص ادجلد ألن بو (الحشرة الذهبية) وروفائيل سباتينى (كابتن بلود) ، وجيمس بارى (بيتر بان) وروبرت لويس ستيفنسون (جزيرة الكنز) .

رقم الإيداع	١٩٩١ / ٢٨٦٦
الترقيم الدولى	ISBN 977 - 02 - 3203 - 0

١ / ٩١ / ١١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)